اقرأ

سلامة خاطر

ثمن الكرامة



دار المعارف بمصر

ثمن الكرامة

سلامة خاطر

ثمن الكرامة

اقرأ ٢١٩
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢١٩ – مارس سنة ١٩٦١

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – بالقاهرة ج. ع. م

. . . ؟ !

أهلا أهلا . . . أهلاً وسهلاً . . . زارنا النبى ! ! حلت ألف بركة . . . ! يا سلام . . . مرحباً بالحسب والنسب . . والشرف الرفيع . . . أشرقت الأنوار ! !

* * *

بهذه التحيات المتلاحقة انطلق لسان الشيخ عبد البارى* سلام فى وجه غريمه الشاب الذى اقتحم داره فى غيبته خفية ، فلما أحس بقدوم الزوج ، انفلت من مخدع الزوجة متسللا . . إلى غرفة مجاورة ، وانزوى فى ركن قصى منها ، متكمشاً حابساً أنفاسه . . . حيث فاجأه الزوج « الشيخ عبد البارى » بذلك الترحيب العجيب . . !

ولم يسع الغريم الشاب إلا أن يمد يده المرتعدة إلى الزوج فيصافحه ، وقد شاع فى وجه كل منهما بشر زائف ، ثم جلسا متقابلين . . !

---

* جميع الأسماء الواردة فى هذه القصة موضوعة .

وانفرج ثغر فريد عن ابتسامة مغتصبة ، تنكرها عيناه الجاحظتان ، من هول المباغتة التى لم تخطر له من قبل على بال . . ! !

. . . .

مهلا يا صديقى القارئ . . . فليس هذا أول القصة . . !

كأنى بك تستعجل النتيجة . . ! ! وأنت تعلم أن النتائج لا بد لها من مقدمات . . . !

. . . أحسّ الآن أنك تشعر بشىء من الاستهجان . . . ولكن . . . لا داعى لكل هذا . . . لأننى ما أردت بوضع هذا الموقف فى المقدمة إلا توجيه خاطرك نحو نقطة التحول فى القصة ، ففى هذا الموقف بالذات ولدت القصة . . . وأعلن اسمها على الغلاف . . . !

فاكهة محرمة ! !

– اسمها نجلاء يا صديقى . . . !

– نجلاء . . . ! أو طعنة فى السويداء ! !

– قل ما شئت ، فلست مغالياً مهما أوتيت من براعة الوصف . . .

– وكيف استطعت رؤيتها ، وأنت تؤكد أن مشاهدتها معجزة من المعجزات ؟ ! هل وقعت المعجزة وتحققت ؟ !

– يا ليتنى رأيتها ولو مرة واحدة . . ! أو لمحة خاطفة ؛ إذن لشفيت غليلى من الرغبة الملحة التى تطارد وجدانى ، وتستولى على كيانى ، إن الذين شاهدوها فى ليلة زفافها ذهبوا فى وصف مفاتنها مذاهب تستأثر بالألباب ، وتسترق جامد الإحساس . . !

لذلك استولى على شعور طاغ لازمنى حتى آليت على نفسى أن أراها رأى العين ولو مرة واحدة . . . ! فانطلقت إلى دارها ، وبدأت الطواف حولها كأننى كنت أطوف بمعبد من تلك المعابد المقدسة . . . ! وما زلت أتردد على تلك الدار الحلوية كلما خلت الطريق من الناس . . ولكن بلا طائل . . .

ــ هل تعرف زوج هذه العروس ؟

ــ عرفته ورأيته وسألت عن أصله وفصله . . . هل تعلم يا فريد أن هذا الشيخ يتجاوز الخامسة والأربعين وعروسه الرائعة فى ربيعها السابع عشر ؟ ! ! تصور يا عزيزى !

ــ هذا الزواج يذكرنى بقول أحد الشعراء :

ألمّ بها فى حسنها وشبابهـــا كوردة بستان جنتها أناملُهْ

فلما مشى من قلبه نحو قلبها رسول الهوى خابت لديه رسائلُهْ

ــ الغرض يا فريد . . . إننى أصبحت ولا هم لى إلا إشباع فضولى ومحاولة رؤيتها، فصرت أتردد على بيتها الجميل، فى الضاحية الخضراء ، وأطوف حوله وأستلم الركن . . . كلما أمنت عيون الرقباء ، وكان الوقت يمضى ، والساعات يتبع بعضها بعضاً وأنا أنظر من بعيد فلا أرى إلا الأستار المسدلة ، والنوافذ المغلقة، كأن الدار خالية . . . لا يسكنها إلا الأشباح ، والأبواب لا تفتح إلا بيد الخادم أو الزوج ولكن فى فترات متباعدة جدًّا . . . أما هى فلا يُرى منها إلا طيف الخيال . . . وهل يُرى طيف الخيال ؟ وفى أحد الأيام بصرت بخادمها وهو غلام لا يتعدى العاشرة ، فحاولت أن أجاذبه الحديث لعلى أقف منه على بعض المعلومات، غير أن الغلام فر من وجهى كأنه يسير

على خطة سيده، فأدركني اليأس وعدت متعثراً في أذيال الخيبة والإخفاق . . .

ـ وما صناعة زوجها ؟

ـ تاجر منسوجات وفد من الإقليم السورى منذ عهد بعيد، وهو رجل قوى الشخصية عربي الأرومة ، لا يؤمن بالسفور ولا ينخدع بالمظاهر، فى وجهه جهامة ، وعلى معارفه صرامة ، متدين يؤدى حق الله والناس .

ـ ألا تستطيع أن تعقد بينك وبينه صلة من صـــداقة أو تجارة تتخذ منها سبباً لزيارته، ومشاهدة زوجته الفاتنة ؟ !

ـ كل شيء ممكن إلا الوصول إلى دارها فمستحيل ! ! لا تنس ذلك . . ! إن هذا الشيخ لا يستقبل أحداً فى داره ، ولاسيما الرجال ، وليس له أقارب كما هو ظاهر ، أما عملاؤه وأصدقاؤه ففى محل تجارته متسع للجميع ! !

ـ هل أستطيع معرفة الدار التى تضم هذه الغادة ؟

ـ لماذا تريد معرفة دارها ؟ هل أصابتك العدوى ؟ مسكين أنت صديقى إذا كانت نفسك قد حدثتك بالمخاطرة . . !

ـ سأخاطر بكل ما أملك فى سبيل الوصول إليها وامتلاكها مهما كلفنى ذلك ، ولن أكون ضعيف الإرادة أقف الساعات

الطويلة أمام دارها ، فى مقابل نظرة إلى طرف ردائها كما تفعل أنت يا صديقى الشاعر !

— ماذا أصنع ؟

ليس فى العاشقين أقنع منى   أنا أرضى بنظرةٍ من بعيد !

ومع هذا أأنت جاد أم مداعب ؟

قال فريد فى تأكيد وإصرار :

— أقسم لك بشرفى أننى لن أستريح ، ولن أهدأ حتى أصل إليها . . كل ما أرجوه منك أن تتنحى عن طريقى ، وأن تضع أمرها فى نطاق اختصاصى فحسب ! وألا تذكر اسمها لأحد وبذلك تسدى إلىّ جميلا لا أنساه ما حييت . . .

— أمرك يا صديقى . . . ولكن . . !

— ولكن ماذا . . . ؟

— لا شىء لقد تذكرت بيتاً من قصيدة قديمة ، ولا داعى لذكره الآن . . .

— اذكره ولا حرج . . !

فرفع عقيرته متغنياً . . !

ـ سألتها الوصل قالت أنت تعرفنا

من رام منا وصالاً مات بالكمد . . !

ـ عش أنت مع عرائسك الشعرية ودعنى . . . أين عنوان الدار ؟

ـ ها هوذا تفضل ولست مسئولا عن النتيجة . . . نجلاء ! هذه آخر مرة يجرى فيها ذلك الاسم الجميل على لسانى . . . إلى اللقاء أرجو لك السلامة .

ـ وأنت يا صديقى أيضاً مع السلامة . . !

* * *

فى قصر فريد صفوت دارت هذه المناقشة ، وقد علمت يا صديقى القارئ كيف انتهى الاتفاق بين الصديقين ـ فريد ومراد ـ وكيف اتجه قلب فريد نحو حب وليد . . أرى على وجهك علامة استفهام أيها القارئ العزيز ؟ هل تريد أن تقول : حدثنا لنعلم من هو فريد ؟ نعم سأحدثك :

فريد شاب فى حدود الثانية والعشرين ، وسيم قسيم ، رقيق الحاشية سخى اليد ، ورث بعد وفاة والديه ثروة طائلة ، وقصراً كبيراً فى ضاحية من ضواحى القاهرة .

ماتت أمه وهو فى المهد فقامت مربيته الأمينة منه مقام

الأم الحانية، فرعته وسهرت على شئونه ... إنه الآن فى ريعان الصبا ، وفورة الشباب ، لا يفكر فى غير الدعة والتحرر والانطلاق . . .

أما التعليم فقد اكتفى منه بما تلقاه فى مراحله الأولى ، ولا عمل له غير البحث عن المتع الشخصية بين رفاقه المقربين الذين يطمعون فيما يغدقه عليهم من بذله وسخائه . . .

ومراد هو أحد هؤلاء الرفاق وأكثرهم صلة بفريد ، ومهمته الكبرى هى رصد مطالع الفاتنات .

فلما خلا فريد إلى نفسه بدأ يفكر ويدبر فى أمر الفتاة التى كانت محور حديثهما .

ولأول مرة فى حياته ينصرف إلى التفكير الجدى فى فتاة بذاتها تفكيراً شغله عن كل ما عداها . . !

والمرأة دائما هى المحرك الأول فى حياة الرجل ؛ فإذا استهوته فيها النواحى المعنوية جاهد ما وسعه الجهد ، للوصول إليها من الطريق المشروع ، ولا يكاد يتحول عنها إلى سواها ، وإذا تعشقها رجاء المتاع المؤقت ظل ينتقل من صيد إلى صيد ، بلا حد ولا قيد . . !

وكان غرام فريد بنجلاء من نوع فريد لانستطيع تحديده ،

وإن كنا ندرك نتائجه ، وبحسبنا أن ندعه منطلقاً فى غوايته حتى آخر الشوط فنحكم له أو عليه . . .

* * *

جلس فريد إلى مكتبه وأمر فاستدعى وكيل دائرته « خلف الله أفندى » ليعرض عليه الموضوع الذى يشغله لعله يجد معه مفتاح الوصول ، وتلك هى المحاولة الأولى فليجرب . . . !

قال فريد لوكيله خلف الله أفندى وعلى محياه مسحة من الخجل :

— من العجيب يا عم خلف الله أنك تتحاشى لقائى ، فأى مانع يمنعك عنى ؟ !

— إن لى محيطاً غير محيطك يا سيدى ، وعندى أعمال متجددة ، لا أكاد أفرغ من بعضها إلا لأبدأ فى غيرها ، من حسابات معقدة ، وأرقام ضخمة مقيدة ، تستنفد جل أوقاتى ، حتى لأضطر إلى تناول إفطارى على مكتبى ، وأحيانا أتناول غدائى وأنا أزاول أعمالى ، لأننى لا أعتمد على غيرى ، هل تصدق أننى فى معظم الأيام لاأرى أولادى . . ! وكيف أستطيع رؤيتهم إذا كنت أخرج من منزلى قبل يقظتهم فى الصباح ! وأعود إليهم بعد أن يناموا فى المساء ، ومع ذلك تقول : إننى أتحاشى لقاءك ؟ ليتنى أحظى بطيبات الحياة فى مجلسك الذى

لا يخلو من بهجة وإيناس ؟ !

ـ كن مطمئناً يا عم خلف الله ، فسأهيئ لك الفرصة السعيدة ، وسأضاعف دخلك ، وأعين مساعداً لك يعينك على إنجاز أعمالك لتتمكن من رؤية أولادك ، وتتمتع بطيبات الحياة بينهم ، على أن تمدنى بمعونتك وحسن تدبيرك ، فأنت رجل مجرب ، وأود أن أنتفع بتجاربك . . .

قال خلف الله أفندى بلهجة المعتد بنفسه :

ـ أنا فى خدمتك يا سيدى العزيز . . !

ـ الموضوع بلا مقدمات اختصاراً لوقتك الثمين ـ هناك فتاة جميلة أحبها أريد منك أن تمهد لى سبيل الوصول إليها سرًّا ، دون أن يتدخل بيننا أحد من قريب أو بعيد ، فهل فهمت ما أعنيه ؟ ! وهل أطمع فى الاعتماد على الله وعليك . . ؟ !

ـ لعلك يا سيدى بدأت تفكر فى الزواج ، وإذا صح ذلك فكيف يمتنع عليك الوصول ؟ وأنت زين شباب الجيل .

ـ إنها جميلة إلى أبعد حدود الجمال ، وكأنها نموذج من نماذج الحور العين ! !

ـ هل تسمح لى يا بنى أن أتكلم بصراحة ؟

ـ تفضل يا عم خلف الله أنت كوالدى . ولك أن تأخذ

كامل حريتك .

ـ إذا كنت تنوى الزواج حقـًّا فأنا خير من يتوسط لك فى الأمر ، ويشرفنى كل الشرف أن أكون موضع ثقتك ، وفى هذه الحالة لا بد من الاتصال بذويها وإقناعهم بوجوب السماح لك بمشاهدتها ، وهذا هو الطريق الطبيعى ، وسنة الشرع الحنيف ، ولا أعتقد أن أحداً من أسرتها يعارض هذه الخطبة ، ومن ذا الذى يرفض مصاهرة الحسب والنسب والشرف والجمال ؟

ـ لا أريد أن أتزوج كما فهمت ! ! إننى أريد أن ألاقيها فى غفلة من الرقباء ، ودون علم زوجها الغيور المزمت ! !

فبدت البغتة على وجه خلف الله وقال بامتعاض وسخرية :

ـ تريد منى أن أجمعك بامرأة متزوجة دون علم زوجها ؟ وما موقفى أنا بالنسبة لهذه المرأة ؟ وما صلتى بها على وجه التحديد ؟

ـ صلتك بها صلة عادية ! ! ما عليك إلا أن توجه إليها أحد أتباعك سرًّا ؟

ـ أحد أتباعى ؟ تقصد خادمتى أو زوجتى مثلا ؟ !

ـ لك أن تتصرف ما شئت ، وأنا من جانبى سأبذل كل ما يرضيك فى هذه الحالة . فقال خلف الله بصرامة وانفعال :

ـ لا تنس يا سيدى أن هناك شرائع دينية ، وتقاليد

إسلامية ، وقيوداً عرفية تحول بيننا وبين انتهاك الحرمات ، والاتصال بالسيدات المتزوجات ، لمجرد اللهو والعبث ، والحب الأثيم . . . !

ــ أرجو أن نتحرر من هذه القيود البالية ، فدعنا من هذه الفلسفة الملتوية ، وافهم ما أعنى ! !

ــ هل ترى من العدل أو الكرامة أو الشرف أن نقحم أنفسنا على الآمنين الأبرياء أو نمد أعيننا إلى متاع لم يخلق لنا ؟ !

ــ كنت أتوقع منك يا عم خلف الله أن تكون سباقاً إلى كل ما تنجم عنه سعادتى وهناءة نفسى . . !

ــ وهل يفتقر مثلك إلى السعادة وبيدك مفاتيحها ؟ وهل ترى من أسباب السعادة أن تسطو على سعادة الآخرين ، فتسلبهم إياها عنوة واقتداراً لتتمتع بها على حساب شقائهم ؟ !

فبدا على فريد الضجر والسخط وصاح :

ــ سبحان الله العظيم يا عم خلف الله ! هل أنت مرهق الأعصاب ؟

ــ كلا يا سيدى إن أعصابى سليمة والشكر لله على نعمة العافية !

ــ تفضل سيجارة من أجود أنواع الدخان لعل أعصابك

تهدأ . . . !

ـ أشكرك ! ! إننى لا أدخن ولا أجد عندى قابلية لتناول أى نوع من المكيفات التى هى من أشد آفات المجتمع فتكاً بالأموال والأنفس . . !

إننى رجل أقدس الصراحة ، وأمقت الملق ، أحب الصراحة لأنها تؤدى إلى الطريق المستقيم ، وأبغض الملق لأنه يؤذى النفوس الأبية ، وتأخذ آلام الناس من نفسى أكثر مما تأخذ آلامى ، ولا أحب أن أكون سبباً فى تعاسة الأبرياء . . !

ـ ولم لا تأخذك بى رحمة وأنا مشف على التلف من سوء ما أعانيه من حرمان ؟

ـ أنت محروم ؟ إن هذا لشىء عجيب ! ! وماذا يمنعك أن تختار العروس التى تضىء حياتك بنور الأمل المتجدد ، وبذلك ندخل البيوت من أبوابها المشروعة ؟ ! وأنا بحول الله كفيل بالبحث عن تلك التى تضفى على وجودك إشراقاً وأملا وكل ما تطمح إليه النفوس الكريمة من كمال وجمال، على أن الجمال هو جمال الروح، والكمال هو كمال الانسجام ، وما عدا ذلك . . .

فقاطعه فريد محتداً :

– كأنك تريدنى على أن أتقيد بامرأة واحدة لأظل أسير هواها ، وسجين إرادتها ، كمن ينفرد بتناول طعام خاص لا يبدله ، ويبقى زاده المفضل ولو جر عليه السأم والتقزز ، وأورثه المرض . . ! وكأن الله لم ينوع ألوان الطعام وأصنافه إلا ليتخذ كل فرد من الناس صنفاً واحداً خاصًّا به لا يغيره ولا يبدله ، فإذا غيره لا يجوز له أن يتذوقه إلا بموافقة الشرائع والقوانين . . !

فتجهم وجه خلف الله أفندى وقال بتؤدة وهو يبرز مخارج الألفاظ :

– إذا كنت تعتبر المرأة طعاماً تأكله لتهضمه ، أو خمراً تشربها لتنتشى بها ، أو حلة تلبسها اليوم لتبدلهـــا غداً ، أو سيارة تركبها لتنزل عنها لغيرك – كسيارات الأجرة – فقد هبطت بقيمة النساء إلى مستوى الأطعمة والأدوات المستهلكة ، وما دام الرجل يجوز له التبديل والتجديد كل يوم فى متعه الشخصية ، فحرى بالمرأة أن تنافسه فى هذا المضمار ، وبهذا تنقرض السلالة البشرية أو تنحدر إلى درك الحيوانية البهيمية .

فنفد صبر فريد وصاح محتدًّا :

لقد اشتط بك الخيال يا عم خلف الله ، فخرجت عن

الموضوع وتجاوزت الهدف ، ولم تصب المرمى ، وما لهذا دعوتك ، فعد إلى عملك ، والزم حدوده بدقة ، وكفاية ، وحذار أن تتدخل فى شئونى الخاصة ، أو تذيع أسرارى .

* * *

هكذا ضاق صدر فريد بمعارضة وكيل الدائرة المحافظ اللجوج ، ولكنه تذرع بالحلم والأناة ، لعلمه أن خلف الله أفندى تغلب عليه الصراحة فى الحق ، فيقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يقول بلا مواربة ، ولا يضيره أرضى غيره أم سخط . . !
ولم يزد فريد إلا ثباتاً على إرادته ، فلما استيأس من وكيله الرجل لجأ إلى سكرتيرته الفتاة .

وكانت كاميليا تتميز بالفطنة والكياسة ، وتميل إلى العزلة وتغالى فى طاعتها لفريد ، لهذا رأى أن يجعلها سفيرة بينه وبين فاتنته « نجلاء » .

فلما وقفت كاميليا على السر الذى دعاها من أجله ساورها شىء من القلق وأطرقت تفكر وتقدر ، فقال فريد :

— لقد تنصل خلف الله أفندى من هذه المهمة لأنه قصير الهمة ولم يستحِ أن يعارضنى بقحة وجرأة ، ولهذا سيظل فى درجته ، ولن أوافق على ترقيته ، أما أنت فسأرفع راتبك ،

وأحيطك بكل ما ترتاحين إليه ، وأغمرك بالعطايا والهبات .

فقالت كاميليا بتخاذل :

– لك الأمر وعليّ الطاعة . ولكن هل تستطيع فتاة غريبة مثلى أن تصل إلى نتيجة إيجابية فى محاولة يعجز عن خوضها الرجال ؟ !

قال فريد :

– لكل غاية وسيلة ، ولا يصل إلى مداخل المرأة ، وينفذ إلى قرارة نفسها إلا امرأة مثلها ، وأنت هى المرأة التى وقع عليها اختيارى ، وسأزودك بإرشادى ، وأراقبك عن كثب حتى تصيبى الهدف ، وتمهدى طريق الوصول .

زائرة متنكرة

خيم الليل على الكائنات ، وما زالت أثارة من الشفق الغارب تحتجب وراء الغمام الداكن الذى ضاعف الظلام ، وحجب المرئيات ، وأوى الناس إلى مساكنهم مبكرين ، ينشدون الدفء ، والرياح تعصف فتتجاوب أصداؤها بين سعف النخيل ،

وأغصان الأشجار، وهكذا تسربلت كاميليا بوشاح الليل ، وبدأت خطتها المرسومة غير عابئة بغارات الشتاء ، وظلال المساء ، فواصلت سيرها فى سرية كاملة ، وهى تتعثر فى ظلام الضاحية النائية ، حتى وقفت بباب حديقة المنزل المقصود ، ولبثت ترهف سمعها بعض الوقت ، فلم تسمع سوى زئير الرياح بين أشجار الحديقة ، فاستجمعت رباطة جأشها وطرقت باب الحديقة ، وقلبها يدق بعنف أشد من طرقاتها الواهنة المترددة ، وانتظرت أن تسمع مجيباً من الداخل ، وكان المنزل يجلله سكون مقبض ، وتكتنفه الوحشة من جميع أقطاره ، فعاودت الطرق مرات دون أن تيأس ، حتى أذن الله وتقدم غلام من خلف الباب وصاح :

— من الطارق ؟

— أنا كاميليا . . . افتح الباب من فضلك .

— من كاميليا ؟ إننا لا نعرف هذا الاسم الغريب ! !

— ضيفة غريبة تريد أن تحتمى من البرد والظلام !

— سيدى لم يحضر للآن، انتظرى حتى أخبر سيدتى وأعود .

انتظرت الفتاة وهى تعد الثوانى بدقات قلبها الواجف ، لا تدرى على أى الأحوال سيتم ختام هذه الليلة العصيبة ، مع قوم لا تعلم

من أمرهم شيئا ! !

ارتد الغلام ففتح الباب بأمر سيدته المصونة ، وتقدم أمام الزائرة إلى بهو المنزل ، وكانت تمشى على استيحاء وقد تزيت بزى القرويات إمعاناً فى التخفى ، وأمرها الغلام بالانتظار ريثما تفرغ سيدته من صلاتها ، فانتظرت بضع دقائق حتى أقبلت سيدة المنزل المنشودة محجبة برداء فضفاض ، لا يبدو من جسمها غير وجهها ويديها ، ومدت يمينها فصافحت كاميليا ، وكلتاهما تشعر بشعور مبهم متوجس ، ولبثت كل منهما ترمق الأخرى بنظرات فاحصة مستوعبة ، وخيل لكاميليا أنها أمام راهبة تتعبد فى محراب قداستها ، ومرت فترة صمت قطعتها « نجلاء » بقولها :

– أكنت تقصدين منزلنا ؟ أم ضللت الطريق ؟

– إنى قادمة من سفر بعيد ، وبيتكم هو أول بيت صادفنى بعد السير الطويل ، وقد توسمت فيه الخير ، وأحسست بهاتف من أعماق يدعونى للاستئذان والدخول ، ومعذرة إذا كنت قد أزعجتكم برعونتى وجهلى !

– من أى البلاد قدمت ؟ وإلى أى ناحية تقصدين ؟

وكانت كاميليا قد أعدت الأجوبة الملائمة رداً على مثل

تلك الأسئلة فقالت بانكسار :

ـ إننى من خدام سيدى « فريد صفوت » صاحب القصر الكبير الذى يشرف على النهر من أقصى هذا الطريق ، ولعلك قد سمعت به ، أو مررت بقصره القائم وسط حديقته الواسعة ، الغاصة بكل أنواع الفاكهة ، والأزهار والرياحين ، وأبراج الحمام ، والدواجن ، والأشجار العالية الظليلة ، هل شاهدت أسراب الحمام التى تحلق فى تلك الجهات نهاراً ؟ إنها . . .

فقاطعتها نجلاء قائلة بقليل من الضجر :

ـ لا شأن لنا بالقصر ولا بالحديقة ومحتوياتها ، ولكنى أريد أن أفهم وجه الصلة بين منزلنا ومنزل سيدك فريد ؟

وهكذا شاء تدبير كاميليا فتصنعت السذاجة التى تتصف بها الخادمات القرويات وأجابت .

ـ اشتقت لأهلى المقيمين فى الريف البعيد من بلاد الصعيد فاستأذنت سيدى فى إجازة لأرى أمى وإخوتى وعشيرتى ، وقد طال غيابى عنهم ، فلم يسمح لى ، فسافرت دون علمه ومكثت فى بلدى أكثر من أسبوعين ، ثم عدت الليلة وحدى ، فلما صرت أمام بيتكم ، اشتد خوفى من سيدى ، وخفت أن يعاقبنى على سفرى من غير إذنه ، فأقبلت عليكم لعلكم تشفعون لى عنده ...

فبدت على وجه نجلاء أمارات العطف وقالت :

ــ اجلسى فإنى أرى آثار التعب بادية عليك ، ومن الجائز أن تكونى جائعة الآن ، فانتظرى حتى أحضر لك طعاماً ،

فقالت الفتاة :

ــ أشكر لك هذا الفضل يا سيدتى فما بى حاجة إلى الطعام .

ــ لا بد أن تتناولى ولو قليلا حتى يحضر صاحب المنزل فيأذن لك بالمبيت عندنا ، وفى الصباح يرافقك إلى قصر سيدك ، ويوصى بالعفو عنك .

اطمأنت كاميليا بعض الاطمئنان ، وتناولت قليلا من الطعام وغسلت يديها وشكرت نجلاء ودعت لها بالسعادة والعافية ، ثم أبدت رغبتها فى الخروج ، فدهشت نجلاء وسألت عن السبب :

قالت كاميليا :

ــ لا موجب لبقائى هنا إلى الصباح ما دمت متوجسة منى ، ولا أريد أن أعود لسيدى مع رجل غريب عنى ، فقد يرتاب فى سلوكى . . . فهل تتفضلين بكتابة رسالة لمربيته إذا وجدت غضاضة فى الكتابة إليه شخصياً ، رجاء أن يسامحنى فلا يأمر

بطردى من القصر .

ـ هذا تكليف بما ليس من اختصاصى ، فلا يجوز لسيدة أن تكتب رسالة لأى فرد من الناس بدون إذن زوجها سواء أكان هذا الشخص سيدة أم رجلا ، مهما كان الدافع إليها شديداً !

فبدت آثار القنوط على وجه الفتاة وقالت :

ـ أستودعك الله يا سيدتى ، ولا أنسى لك المعروف على كل حال .

ـ إذا كنت تصرين على الخروج فى هذا الوقت مع شدة الظلام والبرد ، فما معنى قدومك إلينا ؟

ـ وجدتك يا سيدتى تبالغين فى التحفظ والحذر ، فأشفقت من أن يصيبك ضرر بسببى ، إذ يبدو لى أن سيدى زوجك شديد الغيرة عليك ، يحاسبك على أى اتصال بالناس ، فدعينى أذهب وأمرى إلى الله .

وفى هذه اللحظة أحست نجلاء بأن الفتاة صادقة ، وأنها تستحق العطف والمساعدة ، فأحبت أن تدخل على قلبها جانباً من السرور فقالت: انتظرى قليلا ، وغابت لحظة ثم عادت وبيدها بعض النقود ، وحاولت أن تحملها على قبولها ، فأبت

الفتاة أن تأخذ شيئاً ، فأعجبت نجلاء بعفة الخادمة ، وأحضرت لها عقداً زجاجياً رخيص الثمن مما تتحلى به القرويات وقالت:

– لا تردى هديتى إليك ، وأرجو أن تعودى إلينا إذا لم تجدى راحتك عند سيدك ، لأننى فى حاجة شديدة إلى فتاة مثلك تعيننى فى إدارة شئون المنزل ، وتؤنسنى فى غياب زوجى .

فتناولت كاميليا العقد الزجاجى متظاهرة بالإعجاب والسرور ، وشكرت للسيدة كريم عطفها وأجابت :

– يسعدنى يا سيدتى أن أتقبل هديتك اللطيفة ، وأن أكون عند حسن ظنك ، وسأعمل بكل جهدى على أن أظل متصلة بك ، فقد ارتاح إليك قلبى ، وشعرت بإحساس يداخلنى نحوك هو إحساس الرضا ، وصدق الوداد . وانطلقت مسرعة توغل فى الظلام ، حتى واراها القصر عند صاحبها الذى كان ينتظر عودتها بلهفة وترقب .

خلت كاميليا إلى فريد ، وطفقت تسرد على سمعه كل إشارة وكل عبارة صدرت من نجلاء ، وتصف له جمالها النادر وطبعها الرقيق ، وهو مصغ إليها بكل حواسه ، فزادته وجداً على وجد ، واطمأن إلى نجاح خطته التمهيدية ، وعندئذ أبرزت كاميليا العقد الزجاجى ووضعته بين يديه ، وقالت :

إليك عربون الصداقة والوداد .

فتحسسه فريد بين أنامله تحسس من يعرف قدره الزهيد ولكنه كان لديه بمثابة أغلى الجواهر قيمة ، وأعلاها قدراً ، فأدناه من أنفه وأخذ نفساً عميقاً ، فتغلغلت فى صدره رائحة عطرية هادئة أنعشت وجدانه ، فلثمه بشوق ، وطاب له أن يستبقيه لنفسه ، فتركته ومضت بعد أن نفحها بمنحة سخية جددت فيها روح العزم عند الخطوة التالية .

كاميليا

خرج الشيخ عبد البارى من بيته مبكراً كعادته ومعه خادمه ، فقصدا إلى محل تجارته ، وبعد خروجهما بقليل ، أقبلت فتاة أنيقة المظهر وطرقت باب داره ، فاستقبلتها زوجته وعلى محياها علامات الدهشة والاستغراب . فقالت الزائرة وهى تبتسم ابتسام الظفر :

– أحسب أنك لا تعرفين من أنا ؟

– بودى لو عرفت ، فما أظن أنى رأيتك قبل اليوم . . ! ويخيل إلىّ أن فيك مشابه من فتاة رأيتها منذ بضع ليال . . ؟ !

ـ من تقصدين ؟ خادمة فريد صفوت ؟

ـ كنت أريد أن أقول ذلك ، لكن شتان بينكما ، فخادمة فريد قروية وأنت حضرية . فضحكت كاميليا وقالت :

ـ صدقت فراستك ، أنا هى الفتاة القروية التى كانت عندك منذ ليال .

ـ ماذا تقولين ؟ أنت الخادمة الريفية التى كانت تخشى مقابلة سيدها ، لأنها سافرت إلى أهلها بدون إذنه ؟ !

ـ نعم أنا هى بذاتها . . !

فأطرقت نجلاء وخالجها القلق والارتياب فيما قصدت إليه هذه الزائرة ، وقدرت أن هذه فتاة محتالة تنوى الوصول إلى غاية فى نفسها تستوجب الحرص والحذر . . . ومع هذا لم تجد مفراً من الترحيب بضيفتها الأنيقة المظهر وحياؤها يغلبها على أمرها ، وطيبة سريرتها تحملها على حسن الظن ، وسارت نجلاء تتقدم زائرتها إلى حجرة استقبال منسقة الأثاث ، فجلستا معاً ، وخيم الصمت على الفتاتين لحظة وكل منهما تختلس النظر إلى الأخرى وكأنهما لم تلتقيا من قبل ، وكانت نجلاء تتفحص كاميليا معجبة بهندامها المنسق الجميل ، ومظهرها الذى يبعث على الاحترام ، والفتاة تنظر إلى نجلاء ، وجمال تكوينها ودقة تركيبها ، وانسجام

قدها ، وصفاء لونها ، وتحدث نفسها بأن فريداً لو رآها بعينيه كما تراها هى الآن لما استطاع الصبر ، وطول الانتظار ، وعجبت لوجود مثل هذه العروس الباهرة فى حوذة شيخ من صغار التجار ، وكان الأولى بمثل هذا الجمال النادر أن تحتويه الخدور فى عوالى القصور .

تركت نجلاء زائرتها حيث أعدت الشراب والحلواء وقدمتها لضيفتها وهى تقول :

— أرجو المعذرة إذا كنت قد قصرت فى أداء واجبك عند الزيارة السالفة ، لأنك أنكرت حقيقتك ، ولا أدرى ما هو الدافع لهذا التنكر ؟

— لم يكن هناك دافع للتنكر سوى فضول الناس ، وفى الحق أن اشتياقى لرؤيتك هو الذى دفعنى إلى زيارتك ، وقد رأيت منك أكثر مما سمعت عنك ، ومعذرة إذا كان قد التبس عليك أمرى حينما تقنعت بقناع القرويات ، وتحجبت بثيابهن دفعاً للحرج ، وهذه حقيقة أمرى أكشفها أمامك دون حجاب .

وأخرجت من حقيبة يدها صوراً ومستندات تثبت شخصيتها كاملة وأرتها مجموعة من الصور فى مناسبات وأماكن مختلفة تبرز

مكانتها فى المجتمع ، ثم تابعت قولها :

— إننى لم أتجاوز الحقيقة حين قلت : إننى خادمة ، ولا فرق بين الخادمة والمستخدمة ، فأنا سكرتيرة فريد صفوت الخاصة ، وكاتمة أسراره بعد مربيته .

— إذن أنت تحملين مؤهلات فنية ، وتجيدين اللغات الأجنبية .

— نعم ولكن بقدر محدود ، كما أجيد الكتابة على الآلة الكاتبة ، وقد التحقت بوظيفتى تلك منذ عامين تقريباً ، وموطنى الأصلى بنى سويف ، ولكنى نشأت وتربيت فى القاهرة ، وتلقيت تعليمى فى مدارسها .

— وأين تقيم أسرتك الآن ؟

— أسرتى فى القاهرة ، وأمى توفيت وأنا طفلة ، وإخوتى الكبار كل منهم يشغل وظيفة فى جهة من جهات الإقليم ، ووالدى بلغ سن التقاعد ، وأنا أساعده على قدر استطاعتى ، ولولا أن لوالدى زوجة وأولاداً منها لعشت معه حسب رغبته ، ولكنى آثرت راحته وهدوءه ، مع زوجه وأولاده ، فالتحقت بالوظيفة من طريق الإعلان فى الصحف ، وكان من حسن حظى أن أكون إلى جوارك فى هذه الضاحية الجميلة !

فقالت نجلاء وقد بدا على محياها الارتياح والاطمئنان :

ـ لقد اطمأننت الآن إليك وزدت قرباً منك لأن فى حياتى بعض مشابه من حياتك ، ولكن لماذا لم تتزوجى ؟ ألم يتقدم إليك خاطب مناسب ؟

ـ تقدم لخطبتى غير واحد ولم أجد فيهم فتى أحلامى ! !

ـ وهل تبتغين غير زوج يملأ عليك الحياة أمناً ، ويهيئ لك العيش الكريم بغض النظر عن الثراء والجمال ، وعن الأحلام الأخرى التى تراود خيال العذارى . . !

ـ لو لم أكن فى غنى عن الزواج فى الوقت الحاضر لرضيت بأى زوج يتقدم إلىّ ما دام يتكفل بمطالبى ، ومطالب أولادنا المنتظرين ، ولكنى أرى أن الوقت لم يحن بعد ، وأمرى بيد الله ولن أنسى للسيد فريد صفوت عنايته بأمرى ، ورعايته لشئونى ولطف معاملته لى ، فهو ينظر إلىّ كأخت شقيقة ، مما جعلنى أصرف النظر عن الزواج ، وأكرس جهدى لخدمته ، والعمل على راحته .

ـ ألم يتزوج فريد ؟

ـ إن فريد شاب فى حدود العشرين ، أو تجاوزها قليلا ولم يفكر بعد فى الزواج ، ويعتقد أنه قيد ثقيل ، يحد من

حريته وانطلاقه .

— وكيف يصنع شاب ثرى موفور الصحة والرفاهية ، مع الانصراف عن الزواج ؟ ! لا أعتقد أن مثله يحيا حياة شريفة ؟ !

— حديث هذا قد يطول ، وأنا شخصياً لم ألحظ عليه شيئاً يخالف الشرف ، أو يشوه وجه الثقة فيه .

— إن يوم زواجه آت لا محالة ، ولكن بعد أن تخمد فيه جذوة الشباب . . .

أطرقت نجلاء بعد هذا الحديث وغابت فى تفكير عميق ثم نظرت إلى كاميليا وقالت :

— على ذكر الزواج أحب أن أقص عليك قصة زواجى وهى قصة غريبة ، لتعلمى أن المصادفات ، قد تؤلف بين النقيضين ، فهذا شيخ يكبرنى بأكثر من عشرين عاماً ، ولا أقول إنه ظلمنى بهذا الزواج ، فكل شىء قسمة ونصيب ، ولكنى أذكر واقعة الحال ، على سبيل المثال . قالت كاميليا :

— ما دام الزوج لا يجنى على حقوق زوجته ، ولا يقصر فى أداء واجبه نحوها فى حدود إمكانه ، فمن واجب الزوجة أن تعمل على إسعاده ومرضاته ، لأن فى إسعاده ومرضاته ، سعادة للزوجة ذاتها ، والزوجة العاقلة الحصيفة ، هى التى تؤثر زوجها

على نفسها ضماناً لراحتها ، واستقرار حياتها الزوجية . وهو بدوره إذا كان حكيماً، بعيد النظر ، واسع الأفق . لابد أن يطوق جيدها بكرمه ، ويغدق عليها فيض حبه ووفائه ، ويحقق مطالبها فى نطاق من التدبر والاتزان ، ما دام يفهمها ويقدر تضحيتها وإيثارها . وإلى جوار هذه المعانى ، تهون مسألة فارق السن .

— هذه هى الحقيقة ، وهذا ما أستشعره من زوجى والحمد لله ، ولكنى لا أذيع سراً إذا قصصت عليك الأسباب والنتائج التى جمعت بينى وبين زوجى ، وهى قصة لا تخلو من طرافة ، وقبل أن أقص عليك قصة زواجى ، أرجو ألا يصل سرها إلى أحد غيرك — ولا سيما فريد — إذ لا يخفى عليك أن مثل هذه الأسرار قابلة للتأويل ، والقال والقيل . . .

فقالت كاميليا وقد بدا على وجهها الاهتمام :

— تفضلى يا عزيزتى بسرد ما تشائين وأنت مطمئنة كل الاطمئنان، وأعاهدك معاهدة المحبة والإخلاص أن أكون كنزاً لأسرارك .

اطمأن قلب نجلاء ، ورفعت حجاب الكلفة والحذر ، ومضت تقص قصتها ، والتأثر يبدو على محياها ، وكأنما كان صدرها ضائقاً بحمل هذا السر الذى آدها حمله، ولم تجد حولها

من يواسيها ، حتى قيض الله لها تلك الفتاة المهذبة ، فتوسمت فيها الصديقة الوفية ، لتفضى إليها بمكنون سرها :

نـجلاء

أطرقت نجلاء قليلا ، وقد بدا على محياها التفكير العميق ثم قالت :

ــ نشأت فى أسرة كريمة ، فكنت موضع إعزاز وعطف لدى والدىّ وأخواتى جميعاً ، فعشت مغمورة بالنعمة حتى نلت قسطاً من التربية والتعليم ، وكانت تربيتنا مثالية ، بعيدة عن بهرج المدنية ، ومرت الأعوام سراعاً فكبرنا ، واكتملت أنوثة بعضنا ، وصرن مطمح أنظار الراغبين فى الزواج ، ومع ما كانت عليه حياتى من النعيم ، وما كان يغدقه على أبواى من ألوان العطف وحسن الرعاية ، كنت أشعر بإيحاء خفى أن عطفهما متكلف ، لا يجانس طبيعة العطف الذى كانا يخصان به سائر أخواتى ، مما جعلنى أسائل نفسى عن معنى هذا الغموض ، فلا أزداد إلا جهلا بحقيقة حالى ، فلذت بالعزلة والانطواء فى حجرتى

الخاصة ، وكنت أنا دون سائر أخواتى أنفرد بحجرة مستقلة وكان هذا التخصص يثير ظنونى . فأنقطع للمطالعة فى الكتب الدينية والثقافية التى تزخر بها مكتبة المنزل ، وفى الكتب كنت أجد السلوى والعزاء ، وكان لا يمنعنى هذا من المشاركة فى أعمال المنزل المختلفة .

وكشفت لى مرآتى عن مدى ما حبانى الله به من جمال ، فحمدته إذ أسبغ على كيانى أجمل ما يسبغه على بنات حواء . .

فابتسمت كاميليا وقالت :

ــ هذا لا شك فيه ، فما رأيت فى حياتى جمالا يفوق جمالك . . !

فازداد وجه نجلاء توردا وقالت بتواضع :

ــ أنا لا أقول هذا بدافع الغرور والخيلاء ، فليس ذلك من شمائلى ، ولكنى كنت أحس به إحساساً ، وأسمعه من كل فرد يصادفنى منذ عهد الطفولة ، حتى نضجت واحتجبت مع أخواتى الكبيرات فى المنزل .

ومما كان يدهشنى ، أن جميع من كانوا يتقدمون لطلب يدى ــ وهم كثيرون ، ومن بينهم شخصيات كبيرة ، كانوا لا يقابلون إلا بالرفض دون إبداء أسباب مقبولة فى نظرى ،

كقولهم: إنها ما زالت صغيرة ، أو قولهم : إنها مخطوبة ، وأنا لا أعلم أين هو خطيبي ، حتى لقد ملكتنى الحيرة بعد أن تم زواج معظم أخواتى وفيهن من تصغرنى سناً . . !

وأخيرا تجلى ذلك اليوم الذى وضحت فيه حقيقة أمرى ، فبينما كنت عاكفة على صلاة العشاء ذات ليلة ، إذ دخل علىّ والدى ، وجلس على مقعد بالحجرة ، وانتظر حتى فرغت من صلاتى ، ثم دعانى للجلوس إلى جواره ، فلما جلست مسح على رأسى بحنان أبوى وهو يتمتم بدعوات طيبة مباركة ، ثم قال وهو يرمقنى بنظرات العطف والشفقة .

— هل تعلمين يا ابنتى أن غداً هو الميعاد الذى حددناه لعقد قرانك المبارك بإذن الله ؟ !

فاختلج قلبى ، وارتعدت مفاصلى ، وسرت قشعريرة فى بدنى ، ونظرت إليه فى دهشة واستفسار ، فتابع قوله :

— غداً إن شاء الله ستكونين عروساً للشيخ « عبد البارى سلام » التاجر المعروف . . .

وكنت أعلم أن الشيخ عبد البارى هذا صديق حميم لوالدى ، ويتردد عليه كثيراً ، فقلت :

— وهل رضيت عن مصاهرته ورضيت أمى ؟ فقال :

ــ وكيف لا نرضى وقد عاهدناه على ذلك وأنت طفلة فى المهد ، فاشتد اضطراب قلبى وقلت :

ــ وكيف يا أبت ؟

فتغير وجهه وأخذ يغالب دوافع كانت تعتلج فى وجدانه ، وكأنه يستجمع الأهبة لإعلان سر طال كتمانه ، فاستعصى ذكره على لسانه ، وتنفس نفساً طويلا ، ووضع راحته على عاتقى وقال :

ــ لا مفر من كشف الحقيقة يا ابنتى ، ولو سببت لك بعض الألم :

اعلمى يا نجلاء أن والديك الحقيقيين ، هما غير والديك اللذين عشت بين أحضانهما عبر السنين ، إلى أن كبرت ، وصرت ناضجة الصبا ، ريانة الشباب ، وقد تسابق الخاطبون إليك من جميع الطبقات منذ كنت طفلة لاهية ، مما اضطرنا إلى حجبك عن العيون ، حتى نفسح الطريق لبناتنا الكبيرات إلى أن حان الوقت وجاء دورك ، وستكونين عروساً لصاحب الفضل فى بقائك بيننا .

قلت له :

ــ أهو صاحب الفضل ؟ أم أنت يا أبت ؟

– هو أولا ، وأنا ثانياً ، إذا شئت . قلت :

– وما تفصيل الخبر ؟ . . . وكنت فى حالة نفسية لاأستطيع الإفصاح عنها ، إذ لا عهد لى بمثلها .

قال ، وفى صوته رنين غريب :

– منذ سبعة عشر عاماً أو أقل قليلا ، بينما كان صديقى الشيخ عبد البارى يتأهب لصلاة الفجر فى يوم من أيام شهر رمضان . وكان دائماً أسبق المصلين إلى المسجد ، إذ بصر بك فى المحراب . وأنت طفلة فى المهد ، لا يكاد عمرك يتجاوز أسبوعين ، وكنت أنا أول من لقيه وهو يحملك ويضمك إلى صدره . ليمدك بالدفء والحرارة ، وكنت ترتعدين من البرد ، فسألته عن شأنك ، فقال :

– هذه وليدة وجدتّها نائمة فى المحراب ، ولم أجد أحداً إلى جوارها ، فحملتّها لأمدها بالدفء حتّى لا يؤذيها برد السحر ، وأعتقد أنها ليست من اللقطاء ، فإن فى ظاهرها ، ما يدل على نقاء عنصرها ، ولا شك أن فى الأمر سرًّا قد تتمخض عنه الأيام . فقلت للشيخ عبد البارى :

– دعها فى بيتى وتحت عهدتى حتى ينكشف سرها ، فأنت عزب ، وأنا زوج وأب لأطفال فى مثل سنها وأكبر ،

فأعجبته الفكرة وقال :

— عليك أن تهتم بشئونها ، ومتى كبرت ونضجت تزوجتها على كتاب الله وسنة رسوله ، هذا إذا لم يتقدم أحد ذويها للبحث عنها أو الإعلان عن فقدها . وكان الشيخ عبد البارى فى ذلك الوقت شابًا حديث السن يطلب العلم فى الأزهر الشريف ، ويشارك والده فى أعمال التجارة أيام العطلة . ولم يكن قد انقطع للتجارة بعد ، إذ أنه لم يتفرغ للتجارة إلا بعد وفاة والده الذى كان قد وفد إلى مصر من سوريا واستمر بها فى مزاولة التجارة بقية حياته .

ونقلك الشيخ عبد البارى إلى منزلنا ، حيث أحطناك بالعناية البالغة لأنك كنت طالع خير وبركة على جميع الأسرة ، فاتسعت مواردنا ، وبارك الله فى رزقنا .

ومن الأسباب التى جعلتك موضع إعزازنا ، ذلك المظروف الذى وجدناه تحت طيات ثيابك مربوطاً بإحكام ، وفيه وجدنا مبلغاً كبيراً من النقود ، مع رسالة مختصرة تثبت طهارة منبعك ، وكريم أصلك ، ولا يزال كاتبها مجهولا إلى هذا التاريخ .

كما ألفينا سلسلة ذهبية يتوسطها مصحف صغير الحجم ، داخل علبة ذهبية محلاة بالجوهر الثمين ، وسنقدمها إليك ليلة

زفافك السعيد .

* * *

توقفت نجلاء وحبست دمعة كانت توشك أن تنحدر على وجنتيها ! !

وتأثرت كاميليا بدورها فتركت مدامعها تنساب فى صمت وسكون ، وأغرقتا معاً فى الصمت والتفكير إلى أن استأنفت نجلاء حديثها فقالت :

ــ كانت مفاجأة شديدة الوقع على نفسى ، وإن كنت أتوقعها بعقلى الباطن ، وقد بذل جميع أفراد الأسرة أقصى الجهد فى إدخال السرور على قلبى الكسير .

وتعهد والداى بأن يظلا على اتصال دائم بى ، وألا يتخليا عنى مدى حياتهما ، وفى الواقع ، لم يقصر أحد من الأسرة فى أداء واجبى ، وهدهدة خاطرى حتى زالت آثار المحنة التى غيرت مجرى حياتى .

وتم زفافى وانتقلت إلى هذا المنزل الذى بناه زوجى وأثثه أثاثاً فاخراً ، مبالغة فى أسباب رفاهيتى وإسعادى .

قالت كاميليا معقبة :

ــ ألم تكتشفى أصل والديك إلى الآن ؟

ـ لاأعرف غير والدىّ اللذين ربيانى ، أما أبواى الحقيقيان فلم يزل سرهما مطويـًّا فى ضمير الغيب ، وعلمه عند علام الغيوب !

ـ حديثك عجيب يا سيدتى ، ولولا ضيق الوقت لكشفت لك عن نواح فى حياتى لم أعترف بها لأحد من قبل ، وسأنصرف الآن وموعدنا الزيارة القادمة ، ثم صافحتها وانصرفت .

وما أسرع ما تتمكن الألفة والصداقة بين النساء ، ويتم التكاشف بينهن من أول لقاء ، فيعترفن بأدق أسرارهن ، ولاسيما إذا تجانست الميول ، وتشابهت المشارب .

وقد تمكنت المودة بين نجلاء وكاميليا ، ووثقت كل منهما بالأخرى. وكانت نجلاء تبالغ فى الحفاوة بصاحبتها ولا تكاد تطيق فراقها ، لأن كاميليا كانت أول صديقة دخلت فى حياتها النائية عن المجتمع ، حتى كادت كاميليا أن تنسى المهمة التى وفدت من أجلها ، وكلما سألها فريد عن مدى ما وصلت إليه من تيسير اللقاء الذى ينشده تعللت بشتى العلل ، لعلمها أن نجلاء ليست من النساء اللاتى يسهل التأثير عليهن بالقدر الذى يتصوره .

وفى أحد الأيام عرضت كاميليا على نجلاء رغبتها فى أن تصحبها إلى حديقة قصر فريد ، ترويحاً لنفسها ، وتزجية لفراغها ، واستمتاعاً برؤية المناظر الرائعة التى يزخر بها القصر

فى نجوة من العيون ، ولكن نجلاء ، لم تقبل دعوتها ، ولم تترك لها أملا فى إعادة هذا الرجاء فقد اعتادت تلك العيشة الرتيبة بين جدران بيتها ، موزعة وقتها بين تدبير شئونه ، وبين المطالعة وأداء الفريضة .

ونزلت كاميليا على إرادتها ، ولم تعد تفاتحها فى شأن الخروج معها أو رد زيارتها ، فاكتفت بمواصلة الزيارات من جانبها ، أملا فى أن تصل فى النهاية إلى الغاية التى ترجوها .

القـــلادة

برت كاميليا بعهدها ، فلم تكاشف فريداً بحديث نجلاء ، بل اكتفت بالوصف دون خوض فى أسرار صاحبتها التى وضعت فيها ثقتها ، وبحسب فريد أن يظل على اتصال بأخبار معشوقته ما دامت سكرتيرته قد منته بالوصول عند سنوح الفرصة المناسبة .

وفى صبيحة أحد الأيام أقبلت كاميليا على نجلاء فعانقتها عناقاً حارًّا ، وقالت بعد أن تفرغت لها صديقتها ، وأقبلت عليها باهتمام :

– لا تعجبى يا أختى إذا كاشفتك بأسرارى ، واعترفت لك بخلجات قلبى ، فأنت أعز صديقة ، وأوفى رفيقة ، وأقرب إلى

عاطفتى من الأخت الشقيقة ، وإنى لأرجو أن تستمعى لشكاتى وتشاركينى بوجدانك ، فقالت نجلاء وقد ارتسم على محياها العطف والاهتمام :

ــ حدثينى يا أختى بما شئت ، ولن تجدى منى إلا الأمانة على أسرارك ، ومشاركتى إياك بكل مشاعرى وإحساسى فلا شىء يلطف الأشجان ، غير التنفيس عن خفايا الوجدان . وأى قلب خلا مما يئوده ويرهقه ؟

فتنهدت الفتاة بحسرة وقالت :

ــ برح الخفاء ، وضقت بالصبر ، ولا أجد من أفزع إليه بالشكوى غيرك أيتها الصديقة الوفية ، والأخت الحانية ، فاعلمى أنى أصبحت أهوى فريداً بكل جوارحى ، نعم أحبه حباً قوياً طاغياً ، وطيفه لا يفارق خيالى فى نوم ولا يقظة ولا أدرى كيف أعالج هذا الداء الذى تمكن من قلبى ، وملك على مشاعرى ! فهل يجوز لمثلى أن تطمع فى اتخاذ مثله زوجاً فى يوم من الأيام ؟ ... أنا لا أراه إلا سادراً عنى ، منصرفاً بكل عواطفه إلى فتاة أخرى ! !

فبدت على نجلاء أمارات الأسف والاستنكار وقالت :

ــ أعيذك ياصديقتى من هذا الأمل الكاذب ، فمثل فريد لا يؤمن جانبه مادام منطلقاً فى غوايته ، فأنصحك أن تقتلى هذا

الحب فى مهده ، قبل أن يستشرى خطره، ويتعذر استئصاله .

– محال يا عزيزتى ! ! إن هذا الحب أصبح أقوى منى ، وسلطانه أشد عنفاً من إرادتى ! ، وكيف يتسنى لى أن أقاوم هذا الحب والمحبوب أمام عينى ، أراه وأسمع صوته ، وأحس بكل ما يأتى به من أقوال وأفعال . . ! ؟

شاب تؤخذ العين برؤيته وجمال طلعته ، ولطف إشارته ورقة طبعه ، وانسجام هندامه ، وكلما مر يوم تفتح أمامى عن معنى جديد من معانى الفتنة والاستهواء ، وهيهات أن أجد له شبيهاً بين الرجال ، ولا عجب فهو فريد بين الشباب ! هذا فوق ثرائه العريض ، وأصله العريق فى المجد ، وبذله فى سبيل البر والمعروف . . . !

. . . .

وعلى هذا الوتر الحساس استطاعت الفتاة أن توجه قلب صاحبتها إلى مكامن الفتنة ، ومواقع الإغراء فى الجاه البعيد ، والثراء العريض ، والمنظر الفتان والشباب الريان ، حتى خفضت نجلاء بصرها ، وأخفت وجهها خشية أن تنم قسماتها عن خوالج قلبها ، واجتاحتها عاصفة طارئة من إحساس مباغت بالحرمان ، وسرحت بذهنها فقارنت بينها وبين بعلها وأحصت فارق السن .

وما زالت فى موازنة ومقارنة وهى صامتة مطرقة حتى غاص فؤادها فى قرار من الأسى والأسف . وأحست مرارة لم تجد مذاقها قبل أن تتصل بها كاميليا ، بيد أنها فى النهاية أحاطت فيض مشاعرها بسياج من الرضوخ والرضا ، والاستمساك بالوفاء لزوجها وولى نعمتها ، وكبحت جماح خيالها قبل أن تشتط بها الأفكار ، واتجهت نحو صاحبتها بعد أن دارت هذه الخواطر فى ذهنها دورات سريعة ! وأحست كاميليا بما يجول فى خاطر صاحبتها ، فطربت لهذا النصر ، ولكنها اجتهدت فى أن تبدو جادة ، وأمعنت فى حبك شباكها حين أخرجت من حقيبة يدها صندوقاً أنيقاً وفتحته بضغطة خفيفة على ذر لامع فى صدره ؛ فتلألأت من داخله جواهر ويواقيت تبهر النظر ، وتناولت نجلاء منها هذا الصندوق وهى مأخوذة بدقة صنع القلادة التى بداخله ، ثم ردته وهى راجفة اليد تهمس بصوت واجف النبرات :

ـ مبروك عليك يا أختى .

ـ أنا . . ؟! وهل أستطيع الحصول على قلادة ثمينة كهذه ؟ يا ليتنى كنت الفتاة السعيدة التى يؤثرها فريد بحبه ، ويخصها بأغلى الهدايا . وتنهدت من أعماق صدرها ! !

فقالت نجلاء :

ــ ومن هى تلك التى آثرها فريد بهذه الهدية ؟ لعله بدأ يفكر فى الزواج تفكيراً جدياً ؟ !

ــ لا يا عزيزتى ، ويؤسفنى أن أصرح لك بأن فتاته المحبوبة سيدة متزوجة ! ! ولو كانت خالية لهان الخطب ، وفوق هذا فهى طاهرة عفيفة كما رأيت وسمعت، وإن كان يغلب على ظنى أنها ستفتح له صدرها ، وتسلمه مفتاح فؤادها المغلق ! ! إذا هى شاهدته بعينيها ، وعرفت مقدار ما سيغمرها به من حب وتفان فى إسعادها ورفاهيتها ، وبذل كل ثمين غال من الهدايا فى سبيل مرضاتها .

ففكرت نجلاء قليلا وهى مطرقة ثم رفعت رأسها وقالت بامتعاض :

ــ لا أعتقد أن سيدة شريفة ، كريمة العنصر ، ولها زوج تقبل الحب المحرم ، فلا يقبل الحب الدنس لمجرد مغريات مادية أو فتنة زائلة إلا سيدة وضيعة المنبت ، ضعيفة الدين مجردة من الكمال الإنسانى . . !

وخير له إن كان جاداً ينشد الخير ، ويبحث عن السعادة الحقة أن يصرف قلبه إلى فتاة شريفة، خالية غير مقيدة بزوج، تتوافر فيها الصفات التى يعشقها ليبنى بها ، والنساء كثيرات

تضيق بهن رحاب البيوت الكريمة ، ولن يعجزه الوصول من الطريق الطبيعى ، أما محاولته هذه كما تقولين فلا تستند إلى أساس من العقل ، ولا تصل إلى غاية إيجابية . فقالت كاميليا بأسف :

ـ هيهات أن نحول قلبه بعد أن تغلغلت فيه جذور الوجد فاستحال عليه السلوان ، وأرى أن خير وسيلة وأنجع علاج يشفيه من دائه ، ويصرفه عن هذا الجوى ، أن نمهد له أسباب لقائها ، لعل النظرة ترد عليه وعيه ، وتعيد إليه رشاده .

ـ ربما زادته النظرة وجداً على وجد ، وصار كمن يتداوى باسباب دائه ! ! فقالت كاميليا مستدركة :

ـ أقصد أنه إذا مهدنا له أسباب لقائها ، ووجد منها حكمة وتأبياً ونفوراً ، عاد إليه رشاده ، وانصرف عنها إلى سواها ، فلعلها تكون هاديته إلى جادة الصواب ، فهل فى إمكاننا أن نصل به إلى شاطئ الأمان ؟ أرجوك يا أختى الحبيبة أن تشاركينى بعواطفك ، لنعمل معاً على إنقاذه ، ونصون شبابه الغض النضير ، فإن لم تنتشله يد رحيمة من هذا الطوفان الطاغى ، فهو لا شك مغرق ولا عاصم له !

فقالت نجلاء بحدة وقد نفد صبرها :

ـ أين هى تلك التى استحوذت على قلبه ، وهددت شبابه إلى

هذا الحد العجيب؟! هل أتمكن من معرفتها بالإشارة إلى مكانها ؟

— أنت وحدك تعرفينها أكثر مني ، وعليك أن تتصلي بها ، وتوعزي إليها بتدبير علاجه وشفائه ، لأن لك عليها سلطاناً قوياً لا يمكنها من المخالفة .

فكادت نجلاء أن تدرك ما ترمي إليه كاميليا ، ولكنها تجاهلت وقالت :

— أنا لا أعرف فتاة كهذه المزعومة ، ولا سلطان لي على أضعف الناس ، وأكاد لا أدرك المعنى الذي تقصدين إليه ، فدعينا من الألغاز والكنايات وواجهيني بالحقيقة ! !

— أتودين أن تعرفي من هي ، وأين تكون ؟! إنها منا غير بعيد بل هي معنا في هذا المكان ، وقلبها الحاني اللطيف يخفق بين جنبيك ، وجمالها الآسر الفتان لم يتسع له إلا هيكلك البديع ! !

ثم مدت يدها بالقلادة مع صندوقها وقالت :

— تفضلي يا مليكة الجمال . . . فأنت السعيدة ، الفائزة بتلك الجائزة ! !

أما أنا فلا أستحق غير عقدك الظريف الذي طوقت به جيدي ، وهو أثمن ذخيرة أحتفظ بها من أول لقاء بيننا ! ! هل تذكرين ؟

فتضرج وجه نجلاء ، وتجهمت أساريرها ، وارتسمت عليها تعابير مختلفة من أحاسيس غامضة . وأدركت السر فى اتصال كاميليا بها من أول زيارة ! ! وقالت بأسف وعتاب :

– ويحك ياصديقتى .. أبهذا الأسلوب يكون صيد القلوب؟! كأنى بك تسددين إلى شرفى طعنة ماحقة تصل بحياتى إلى أسوأ مصير . . ! فارتبكت كاميليا وتغير وجهها وارتج عليها فلم تدر كيف تواجه صاحبتها وقد انكشف الغطاء ، ووضح المستور وتابعت نجلاء عتابها فقالت :

– إذن أنت سبب هذا البلاء ، لأنك نقلت إليه صورتى بالوصف ، وشغلت خاطره بى ، فاندفع فى تيار غوايته ، وأنت وحدك الممسكة بطرف الخيط تجذبينه متى شئت وحيث أردت ؛ وكنت أحسبك أمينة على أسرارى فكشفت لك الستار عن خفايا قلبى ، وما كنت أقدر أنك ستنحدرين بصديقتك التى أولتك كامل ثقتها من أول تعارف إلى هذه الهاوية السحيقة . . !

فسرت رعدة شديدة فى أوصال كاميليا وأجابت بصوت مضطرب :

– أنا التى أنحدر بك إلى هاوية السوء ، وأنقل أسرارك ، وأتخذ من صداقتك وسيلة للعبث ؟ أنت واهمة يا صديقتى . . !

وأقسم لك أننى لم أعرفك إلا من طريقه ، وبإرشاده وإشارته ولو لم يكن يعرفك ، ويسمع من الناس أخبارك من قبل ، لما عرفت طريقك ولا وصلت حبالى بحبالك ، وهل تظنين وقد طبقت شهرة جمالك الآفاق ، أن صديقتك الوحيدة هى أول من نقل صورتك بالوصف ، وهى آخر من رآك ، وأول من سعد بصداقتك ؟ !

فأطرقت نجلاء وقد دارت برأسها أفكار مشوشة مفزعة ، صرفتها جاهدة عن ذهنها ، وودعت كاميليا التى خرجت متعثرة الخطا فى صمت واستخذاء ! !

وأقبل الشيخ عبد البارى بعد ظهر ذلك اليوم ، ولاحظ فى تصرفات زوجته بعض التغيير ، وفى ملامح وجهها كثيراً من التعبير ، كما طالع فى نظراتها سهوماً ووجوماً غير عادى . . !

فأنشأ يداعبها ويطرفها بالفكاهات والطرائف حتى استطاع أن ينتزع من ثغرها ابتسامة متكلفة حائلة ، وعزا هذا الانقلاب الطارئ إلى ما تعانيه من السأم والوحشة فى أثناء غيابه ، فأخذته بها الرأفة ، واحتواها بين ذراعيه ، وضمها إلى صدره ضمة حانية ، فأحست بعض الهدوء والاطمئنان وأطبقت جفنيها ، واستسلمت لنشوتها ، وألقت رأسها على عاتقه ، وغابت فى حلم

لذيذ ، ثم فتحت عينيها بغتة ، ونظرت إلى وجه زوجها بارتياع واتسعت حدقتاها كمن أفاق من حلم .

تخلصت من بين أحضانه بجفاء، وكلما اقترب منها أجفلت وارتدت إلى الوراء ثم انطلقت إلى مخدعها كالغزال النافر ، واستلقت على سريرها وظلت تتقلب كالزورق التائه ، تتقاذفه الأمواج فى بحر لجىّ .

وأدركها زوجها فاستلقى بجوارها . وطوق خصرها بذراعه ، فانتفضت مذعورة كمن مسته النار ، ثم اتجهت إلى مرآتها وأصلحت ما تشعث من هندامها . وتفرغت لإعداد المائدة ، وجلسا يأكلان فى صمت وفتور وكل منهما فى شاغل :

أما هو فكان يفكر فى هذا الشذوذ الطارئ ، ويكد ذهنه لتعليل أسبابه .

وأما هى فكان فكرها يطير ولا يقع ، ويندفع إلى غير اتجاه ، كالطائر المحلق وقد أحاطت به الرياح من كل جانب !

على أن الشيخ عبد البارى لم يطلق لأفكاره عنان التكهنات لعمق ثقته بزوجه ، فاستعاذ بالله من شر الشياطين ، وكيد الحاسدين ، وعكف على صلاته ودعائه .

أما كاميليا فقد عادت إلى فريد ، وكان متلهفاً على

أنبائها ، وعلى موقع القلادة من نفس معشوقته نجلاء ، فلم تشأ كاميليا أن تسد فى وجهه منافذ الأمل ، فكتمت عنه حقيقة ما دار بينها وبين نجلاء وقالت :

– لقد وقعت القلادة من نفسها موقعاً جميلا ، واحتفظت بها معتزة فخوراً .

فقال وقد اشتد شوقه . وخفق فؤاده :

– لم تبق لى طاقة بمواصلة الانتظار .

– تمهل ولا تندفع حتى تحين الفرصة فإنى أراها تزداد جموحاً كلما ذللت قيادها ، وأرى أن نجافيها مدة من الزمن بالانقطاع عن زيارتها لعلها تستوحش فتلين قناتها . . !

فانتظر فريد على مضض . .

وكان يرى أن الهجوم الخاطف ، سيكفل انتصاره السريع ، ولكن سكرتيرته أو سفيرته كانت تحول بينه وبين الاندفاع والتهور ، وكأنها تقول بينها وبين نفسها :

فيا جارها بالخيف إن مزارها قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

قال فريد بلهجة من نفد صبره :

– ألم تقولى : إنها قبلت الهدية بسرور وانشراح ؟ ! فكيف تمتنع على صاحب الهدية .

– إنها قبلتها بعد أن عانيت كثيراً فى سبيل إغرائها بقبول القلادة ، ومع قبولها فإنها ما زالت مستمسكة بالدلال والحفاظ الشديد وكأنها راهبة فى معبدها . . .

– لماذا لم تكررى دعوتها لعلها توافق على زيارتك هنا فى القصر ؟

– حاولت دعوتها بكل الوسائل فلم أفلح حتى زعمت أنها كالسمكة إذا خرجت من الماء استحالت عليها الحياة . . .

فصبراً يا سيد فريد ، ولا تنس أن الصيد الثمين يحتاج إلى الأناة والروية وعدم الاندفاع ، وإحكام الخطط ، بحيث لا ندع للفريسة سبيلا للإفلات من أيدينا . . .

الخدر المصون

بعد مرور فترة من الزمان قضاها فريد على أحر من اللظى ، وهى صبره ، وضاق صدره ، فأعد عدته للهجوم المدبر .

وفى الساعة التاسعة من صبيحة أحد الأيام ، ارتدى زياً بلدياً وزود حافظة نقوده بما اتسعت له من أوراق النقد ، واستقل سيارته وانطلق . وقبل أن يحاذى منزل نجلاء بمسافة انحرف عن الطريق ، وأرسى سيارته تحت أحد الأشجار وأمر

كاميليا فغادرت السيارة ، واتجهت نحو صاحبتها فى منزلها لتهيئ له طريق الوصول إلى هدفه المنشود .

سارعت الفتاة إلى المنزل رابطة الجأش ، ثابتة الخطا ، وطرقت الباب برفق وهدوء ، وكأنما أدركت نجلاء أن كاميليا هى الطارقة بعد أن طال انقطاعها عنها ، فهرعت إلى الباب ، واستقبلتها فرحة متهللة ، وأخذت بيدها وسارت إلى مخدعها ، وأقبلت عليها تعاتبها على غيابها الطويل إلى أن قالت :

— أحسب أنك قطعت زيارتى لصراحتى معك ؟ !

— إن صراحتك تعجبنى وتزيدنى بك تعلقاً لأنها دليل إخلاصك .

— إذن كيف هان عليك أن تهجرينى وأنت تعلمين أننى وحيدة ولا أجد من يخفف وحشتى فى غياب زوجى ؟ !

— لو كان أمرى بيدى لما تركتك ساعة من نهار ، ولكن كثرة أعمالى ، واشتغالنا بأمر فريد . . . إنه يا عزيزتى فى حالة سيئة ! حتى أصبحنا فى أشد حالات القلق على حياته ! !

— بعد الشر عنه ..! ماذا يهدد حياته ؟ هل هو مريض ؟ شفاه الله وعافاه .!

— إنه مريض بداء عضال ، وداؤه فى أشد مراحله ، وشفاؤه

متوقف على كلمة واحدة تنطقين بها ، أما الأطباء فقد أعجزهم دواؤه ، واستعصى عليهم شفاؤه .

ــ كلمة منى أنا ؟ ولمن أقولها ؟ وما هى هذه الكلمة ؟ لعلها مفتاح السر ، ويؤسفنى أن أقول : إننى لا أملك مفاتيح الأسرار .

ــ يا سيدتى إنه مشفٍ على الخطر . . وأنت السبب ، ألم تدركى المعنى المقصود ؟ !

ــ وما صلتى بفريد ، حتى أكون سبباً فيما يتهدد حياته من خطر ؟

ــ الوجد، الصبابة . . . السهد . . . الامتناع عن الطعام، الشحوب والهزال ، الإغماء ، الهذيان . . . أليست هذه كلها أسباباً كافية للقضاء عليه ؟ !

ــ أإلى هذا الحد يقع الشاب فريسة للوساوس والأوهام والخيالات التى لا وجود لها إلا فى مخيلته ؟ فى أى عصر نحن نعيش ؟

فقالت كاميليا وفى نبرات صوتها أسى وإشفاق :

ــ بربك لا تتجاهلى الأمر ، وخذى بيد الغريق ، واسمحى له بالجلوس معك بعض الوقت . . ! !

ــ كنت أحسب أنك وفدت اليوم بدافع الحنين والإخلاص المحض ، فإذا بك تفرضين علىّ أشواقاً دخيلة اشتعلت فى قلب

شاب عابث ، لم يرنى ، ولم أره مرة فى حياتى ، فأرجوك ألا تجددى مخاوفى ، وكفى ما قاسيته من عذاب الضمير . . !

ـ وكيف عذبك ضميرك وأنت لم تتجاوزى حدود العصمة ؟

ـ عذبنى ضميرى لاندفاعى وراء الثقة بك، هذا الاندفاع الذى أوقفنى منك هذا الموقف الزرى . . !

ـ وما هو هذا الموقف الزرى لا قدر الله ؟ !

ـ هو الذى جرأك على مساومتى فى عرضى . . !

ـ يا سيدتى لا تقولى مثل هذا الكلام، وانفى عن خاطرك هذه الظنون، فعرضك مصون ، وسرك مكنون، ولن ينقص من شرفك الجلوس مع شاب وديع هادئ كريم الأصل ، لا يقوم منك إلا مقام الأخ العاطف من أخته الحانية ، فلقد طال انتظاره ، وأنا أراوغه وأحمله على التمهل والأناة ، حتى ضاعت حيلى ، ونفدت أساليبى فى تذليله ورده عما يحاوله ، فهدد بالانتحار إن لم يرك رأى العين فى أقرب وقت ، فبماذا تشيرين ؟

فاحتدم انفعال نجلاء وقالت :

ـ إنك ما زلت تساومينى فى شرفى وعصمتى ، وكأنك تضعين صونى فى كفة ، ونزوة صاحبك فى كفة ، ولا أدرى أى الكفتين أرجح فى عقيدتك ؟ ! فإن كنت ترجحين الأولى

على الثانية فقفى بنا عند هذا الحد . . ! واحتفظى بصديقة طاهرة نقية الإزار ؛ وإن كنت ترجحين الثانية على الأولى ، فما أهون شرفى وما أرخص حفاظى ، وما أوهى عصمتى لديك يا صديقتى الوفية ! ! ويا لها من صداقة خائبة مشوبة ، كان أولى بها ألا تكون ! !

– مهلا يا عزيزتى فسأوضح لك قصدى ، أما عصمتك فى حصنها المنيع ، وحاشا أن تمتد إليها يد الإثم . ولو كنت أعلم أن فريداً بزيارته إياك سينحط إلى درك الحيوانية لأقصيته عنك وذدت عن عفتك وإبائك بدمى وحياتى .

ولا تنسى أننى كاشفتك بحبى لفريد ، وأطلعتك على دخيلتى وخبايا صدرى ، فكيف أحبه هذا الحب الجارف ، ثم تسول لى نفسى أن أقدم أعز صديقاتى ، وأمنعهن جانباً ، وأطهرهن إزاراً ، قرباناً على مذبح شهواته ؟ ! واستطردت :

إن الذى أسعى إليه ، هو شفاؤه من دائه ، فإذا جالسك مجلساً منفرداً ، فوجهيه إلىّ ، واحمليه على إيثارى بحبه دون غيرى ، فكلمة منك فيها الكفاية ، لما لك من المنزلة العالية ، والأثر القوى فى نفسه ، فإن لم ترحمى فريداً فارحمى أختك الشقية المعذبة التى تحب بلا أمل ولا رجاء ! !

قالت كاميليا هذا الكلام بصوت متهدج حزين ، ثم انكفأت تبكى بحرقة وحرارة ، وتنشج نشيجاً مؤثراً . . .

أطرقت نجلاء . وغامت عيناها ، وفاضت مدامعها تأثراً بالموقف الرهيب ، ودارت بها الأرض ، وملكها إشفاق مشوب ببعض الارتياب ، فلبثت شاخصة ببصرها ، لا تطرف ولا تنطق . ولا تكاد ترى شيئا ، حتى قطعت كاميليا هذا الصمت ، بعد أن جففت مدامعها ، واستعادت حالتها الطبيعية ، وبدا عليها الارتياح لنجاح تدبيرها ، فاستطردت وهى تقصد تغيير الحديث .

ــ كم تمنيت أن أرى لآلئ القلادة متألقة على جيدك الناصع .

ــ آه ! ! ذكرتنى بالقلادة وقد تركتها عندى فى الزيارة السابقة .

وهمت ففتحت حقيبتها وأخرجت منها القلادة ووضعتها أمام كاميليا فأبرزت كاميليا القلادة من صندوقها وقالت بضراعة وتوسل :

ــ أرجوك أن تريني كيف يكون انسجام الجواهر على هذا الصدر الساحر .

فقالت نجلاء بحدة :

– ماذا تقصدين ؟

– لا شيء إلا مجرد تجربة لكى أراك بهذه القلادة ، لأنك لم تلبسيها أمامى لتجربتها . .

– وما الداعى لتجربتها ، وهى ليست ملكى ، ولا أود امتلاكها ؟

– على كل حال أنت تصرين على رفضها ، فلا أقل من أن أرى جمال الحلية النفيسة على الصدر الجميل . تفضلى فأرينى ولا تخشى شيئاً فنحن هنا منفردتان . .

فأمسكت نجلاء بالقلادة من طرفيها واتجهت نحو المرآة فى فتور وتثاقل ، وطوقت بها جيدها الساحر ، فصارت فتنة الناظر ، وبهجة الخاطر ، وزاد جمالها ضعفين ؛ فلبثت كاميليا شاخصة إليها مرددة عبارات الإطراء والإعجاب ، حتى غمرتها موجة من الزهو وهى تطالع صورتها الرائعة فى مرآتها ، وطاب لها أن تستكمل زينتها . فأخرجت حلة فاخرة من حلل الزفاف ، وخلعت ثياب المنزل وانشغلت بلبس الحلة الفاخرة . . .

أما كاميليا فقد غافلتها وتسللت من الحجرة بعد أن اغتنمت فرصة انشغالها بتبديل ثيابها ، وخرجت إلى الطريق ، وتركت أبواب البيت مفتحة أمام فريد ، وأعطته الإشارة فترك السيارة لها واقتحم الخدر المصون .

ثمن الكرامة

كانت نجلاء فى غمرة زهوها بما وهبها الله من جمال رائع تشعر فى أعماق نفسها بالأسى ، لاحتباسها بين جدران بيتّها كالزهرة المتفتحة فى المهمه القفر ، وطالما تمنت أن ترى آثار فتنتّها بادية على العيون ، وتلك طبيعة الحسان ؛ فما كادت تأنس رغبة من صديقتّها كاميليا فى الظهور متحلية بالقلادة أمامها حتّى لبت رغبتّها راضية ، فبالغت فى زينتّها ؛ وما كانت تقدر أن الشباك من حولها معدة لاقتناصها ، « ومن مأمنه يؤتى الحذر » ، فبعد أن فرغت من استكمال زينتّها ، أطالت النظر إلى دقائق تكوينها ، وكأنها لم تشهد محاسنها قبل هذه الساعة ، فأخذت تسرح بصرها فى كل ناحية من نواحى مفاتنها ، ثم تراجعت إلى الوراء أمام المرآة ، وهى تحسب أن كاميليا لم تبرح مكانها ، وأنها إلى جانبها تشهد انسجام جمالها مع بديع زينتّها ، فقالت دون أن تلتفت وراءها :

— أهكذا تريدين ؟ ! . . .

ولم تكن قد أحست بالواقف على باب مخدعها يلتهمها

بنظرات الدهشة والإعجاب . . . فلما سمعها تقول : أهكذا تريدين ؟ اعتقد أنها تتهيأ للقائه المرتقب ، فطرب أيما طرب وأجاب :

– رائع ! ! رائع جدًّا وأروع مما تتصورين . . !

فانتفضت مذعورة ، وارتعدت أوصالها ، وغلا الدم فى عروقها واحتبس الكلام فى حلقها ، فلم تستطع النطق ! ! وتتابعت الخواطر على ذهنها : ماذا تصنع ؟ وكيف تدرأ هذا الخطر الداهم الذى انقض عليها وباغتها دون أن تفطن إليه ؟ !

وأدرك فريد ارتباكها واختلاج مشاعرها ، فوقف ذاهلا وقد خلبته بلحظها الفتاك ، فكادت تصرعه لولا ما تذرع به من الثبات فى مثل تلك المواقف فقال برقة ولطف :

– معذرة يا سيدتى إذا كنت قد أسأت إليك باقتحامى باب خدرك المقدس ، وثقى أننى الآن غيرى فى كل يوم مضى من أيام حياتى . . .

إننى لا أدرى هل أنا ماثل أمام إحدى ملكات القصص والأساطير أم أنا فى منزل من منازل الحى أبحث عن فتاة شغلنى أمرها عن كل شىء . ؟ ! . . .

فنظرت إليه نظرة ثاقبة وقالت بعد أن تمالكت وعيها :

– ما الذى حدا بك إلى هذا الاستهتار بحرمة البيوت ، والتعدى على خدور الحرائر المصونات ؟

– أشهد أنك طاهرة طهارة مريم البتول فى محراب قداستها ! وما أنا إلا شاب مشف على الهلاك جئت أستمنح عطفك وحنانك ، لعل عندك شفائى مما أعانيه من جوى والتياع ، فخذى بيدى وأنقذينى ودعينى أتملى بهذا الجمال الباهر برهة قصيرة . ثم أنصرف لشأنى لا ألوى على شىء . إلا إذا عطفت فاستدعيتنى لأكون لك خادماً أميناً ، وساعداً معيناً .

– يا سيدى لا تطل الحديث ، وعد من حيث أقبلت قبل أن تقع الكارثة فتحطمنا معاً .

– أى كارثة يا سيدتى أشد وأنكى من جفائك وصدودك ؟!

– دع عنك هذا الهذر الرخيص ، فما مثلى تخاطب بألفاظ الغزل والمجون ، وخير لك أن تخرج سريعاً ضنا بشرفك وشرفى !

– هونى عليك ، فما أنا بلص أثيم ، ولا شيطان رجيم ، بل أنا أخ رحيم لا ينشد إلا صلة من وداد شريف .

– وهل الأخ الرحيم ينتهك حرمة البيوت الآمنة ، ويسطو على مخادع الحرائر من غير وازع ولا زاجر ؟ ! وتابعت قولها فى حدة :

كان أولى لك ، وأحرى بك أن تعقد صداقتك الشريفة ، ومودتك البريئة مع رجل مثلك إذا كنت شريف القصد كما تدعى ، أما سيدة مثلى لها بعل غيور ولا تكاد تبرح باب خدرها ، فأى حق لك عندها ؟ وأية رابطة تربطك بها ؟ رجائى إليك أن تنصرف ، وألاّ تعود لمثل هذه الحماقات الطائشة . . !

فمد يده إليها برزمة من الأوراق المالية الكبيرة القيمة وقال :

ـ إن جميع ما أملك من مال تحت تصرفك . فاطلبى منه ما شئت ولن تجدى منى غير البذل عن طيب خاطر . فأى مبلغ تطلبين ؟

ـ وبأى حق تهب لى مالك ؟ هل شكوت إليك الإعسار؟! أم دعوتك فى مشروع من مشاريع البر والإحسان لمساعدة البائسين والمعوزين ؟

ـ لا تذهبي بأفكارك بعيداً ، فما أردت تقديم المال إلا لقاء نظرة عطف ورضاء ، وبعدها أنصرف سعيداً قانعاً من الغنيمة برضاك عنى .

فشمخت بأنفها ترفعاً واستعلاء وقالت :

ـ اعلم يا سيدى أن سعادتنا لا تستمد من المال ، بل نستمدها من القناعة بالرزق الحلال ! ! ونجود بالحياة ذوداً عن

العرض المنيع ، وفداء للشرف الرفيع ؛ فاحفظ عليك مالك ، أو تصدق به على المساكين والمحتاجين .

فبدا عليه الوجوم والامتعاض وقال :

— اذكرى أنك قبلت هديتى وهى من الآثار الأثيرة التى أعتز بها . . . ! هل تعلمين أن هذه القلادة التى تحلين بها جيدك المرمرى هى هدية والدى لوالدتى قبل أن يبنى بها — كما أخبرتنى بذلك مربيتى — وهل قدرت ثمنها ؟ أنها تقدربعشرات المئات من الجنيهات . . ! ولك أن تقوميها عند تجار الجواهر لتعلمى أنك أثمن وأغلى عندى من كل النفائس الغالية ، ويسعدنى أنك قبلت هديتى إليك ، فى قبولها ، قبول منك لصداقتى . . !

فخلعتها بعصبية وردتها إلى صندوقها وطرحتها أمامه على مقعد يجاوره وهى تقول :

— تفضل فخذ أثرك العزيز ، وهديتك الغالية ، وقدمها لمن هى أولى منى وأحق بهداياك ونفائسك .

وكانت تضمر فى دخيلتها حنقاً وغيظاً نحو الفتاة التى خدعتها بالصداقة المغرضة ، وأوقفتها هذا الموقف الحرج المهين !

وجم فريد وشعر بجبهة أمل مريرة وقال :

— أعتذر إليك يا سيدتى وإنك لعلى حق ! فما كان لى

أن أدخل البيوت مقتحماً بلا وازع ولا زاجر كما تقولين ، ولعلى أستطيع التكفير عن خطأ دفعنى إلى الوقوع فيه طيشى ، وسوء تقديرى ، وجهلى بموازين اللياقة .

وهم بمغادرة الحجرة ، بيد أنه توقف قليلا حينما لمح على محياها بوادر الهدوء والارتياح ، فجلس كئيباً كاسف البال ، شارد التفكير . . . وكانت نجلاء تنظر إليه بركن من عينيها ، وترثى لشبابه الضائع ، وتحس فى قرارة نفسها بعطف عليه لا تدرك مأتاه ! !

واسترسل فريد فى صمته وإطراقه ، وقد أسند رأسه براحته ، ولعله كان يفكر فى أنجع وسيلة لإخضاعها وتذليلها ، أو لعله كان يحدث نفسه باتخاذ إجراءات سلبية تحملها على التسليم والإذعان ، فلما أعياه الحل شعر بدوار فى رأسه ، فأخرج علبة سجائره الذهبية وتناول منها سيجارة وأشعلها ، ومضى يجذب أنفاسها وينفثها بعصبية وشرود ، حتى جلل الدخان جو المخدع بسحائب تتلوى وتتوثب كأنها مقدمات انفجار مدمر . . !

وفيما هو يفكر ويدبر فى وسائله صاحت به وقد ضاق صدرها وأحست برهبة خفية :

— ماذا تنتظر الآن ؟ إما أن تخرج فوراً ، وإما أن أترك لك

البيت وأرتحل . . ! أتوسل إليك أن تنصرف قبل أن تسوء العقبى . . ! فأجابها ببرود :

ـ سأنصرف سريعاً فاطمئنى . وتحرك فى بطء وطفق يعد نقوده أمامها ، ثم وقف وتوجه إليها يستجديها الرضا ، ويستمنحها الصفح الجميل ، وهى سادرة مزورّة عنه تردد عبارات الإباء .

وما هى إلا فترة وجيزة حتى ارتج سمعاهما ، على أثر طرقات مدوية على باب الحديقة الخارجى ، فارتعدت أوصال فريد ، وهلع فؤاده ، وارتبكت نجلاء وانهارت ، وقالت بصوت هامس كأنه حشرجة المحتضر :

ـ هذا ما توقعته . . . !

فهى تعلم أن هذه الدقات العنيفة لا تصدر إلا من زوجها ، فملكتها حيرة ملحة . وتلاحقت خفقات قلبها فرقاً ، ولكنها تمالكت بعض وعيها وأشارت إلى باب يؤدى لحجرة الاستقبال ، فدلف إليه فريد قفزاً ورد المصراع خلفه ، ولاذ بزاوية من زوايا الحجرة ، وأطفأ سيجارته ، وحبس أنفاسه وجلس ، لا يدرى كيف ينجو من ذلك المأزق العصيب ، وتلك أولى مخاطراته بنفسه فى ميدان غرامه .

ودارت بخاطره تحذيرات رفقائه ، ووصفهم لطباع الشيخ

عبد البارى ، وقوة بأسه وحميته العربية فى مواقف الدفاع عن عرينه . . .

تقدم الشيخ عبد البارى ، فقرأ على وجهها آيات القلق والاضطراب ؛ وأدرك أنها تعالج ألماً ممضًّا مكبوتاً ، كأنها تقبض براحتها على جمرة متقدة ، ولا تستطيع بسط كفها لطرح النار المحرقة ؛ فتقدمها إلى مخدعها وبقايا الدخان منبثة فى أرجاء الحجرة ، وصاح بصوت مختنق :

– ما هذا الدخان ؟ هل تدخنين ؟

– كلا ، وأنت تعرفنى جيداً .

– فكيف تفسرين هذا الدخان ؟ !

– تفسره أنت . . .

– وكيف أفسره ؟

فلم تجد مناصاً من الاعتراف وقالت : مشيرة إلى المكان الذى يختبئ فيه فريد :

– إذا دخلت هذه الحجرة . . !

فعالج الزوج باب الحجرة المشار إليها حتى فتحه ، ورمى ببصره فالتقى ببصر فريد فى أضيق حيز ، كما يلتقى المتبارزان فى حلبة المبارزة ولكن بلا شهود . . !

ماذا يصنع الزوج الموتور ؟ هل يحطم رأس غريمه ؟ هل يسدد إليه رصاصة تفضى به إلى الجحيم ؟ هل يقبض عليه متلبساً بجريمته ويقدمه للعدالة ليلقى جزاء المجرمين ؟ هل يطلق سراحه ويدعه ينصرف آمناً تفادياً للعار والفضيحة ، ويسدل على السر ستاراً كثيفاً ، ويكتفى بمحاسبة الزوجة وتسريحها بلا ضجة ، وينتهى الأمر عند هذا الحد ؟

كلا كلا . . . لن يفعل شيئاً من ذلك ، بل سينتقم لكرامة عرضه ويسترد شرفه من أقرب متناول ، وبطريقة فذة لم يسبقه إليها أحد ! ! فماذا فعل ؟ ؟

رفع يديه إلى رأسه بإجلال وتعظيم وهتف مرحباً :

ــ أهلا ... أهلا ... أهلا وسهلا ... زارنا النبى ، حلت البركات ، أشرقت الأنوار، مرحباً بالحسب والنسب والشرف الرفيع .!

قال فريد وقد جحظت عيناه ، واتسعت حدقتاه بعد أن تمالك رشده :

ــ لا أدرى ماذا وراء هذا الترحيب العجيب ! ! هل كنت تتوقع وجودى فى هذا المكان ؟! فقال الشيخ عبد البارى بهدوء واتزان :

ــ كلا والله يا صاحب السعادة ، كل ما هنالك أننى فوجئت بمقابلة مشرفة لم أكن أحلم بها . . . !

ـ وهل تسرك مقابلتى ، وتعتبرها مشرفة بهذا الوضع ؟

ـ وكيف لا يسرنى لقاء ضيف عظيم يزيدنى شرفاً على شرف؟ أما هذا الوضع فله شأن آخر . . ! وأظنك تقدره حق قدره ؟

ـ ماذا تعنى ؟ هل تنوى محاسبتى عليه ؟

ـ بالطبع . . أما الترحيب فواجب الرجل الكريم نحو ضيفه ، وأما الحساب فواجب الكرامة نحو الذى يتخطى حدودها .

ـ وهل ترانى تخطيت حدود الكرامة ؟

ـ إلى أبعد حدود التخطى والتجاوز ، ولسنا بصدد تحقيق ، فالأمر أوضح من أن نحققه ونقيم عليه الدليل ، فنحن الآن فى موقف حساب ، وأرجو ألا تعتبره عسيراً عليك ، فأنت شاب ثرى ومن بيت كريم يعتز بالكرامة ، ويفتديها بماله ما وسعه الفداء !

ـ نعم نعم ، فهمت الآن ما قصدت إليه .. إنك تطالبنى بالثمن . وكم تطلب ثمناً للكرامة ؟

ـ تقصد كرامتى ؟ أم كرامتك ؟

ـ كرامتى أنا أولا ، وكرامتك أنت ثانياً فكم تريد فى مقابل كرامتك أو كرامتى حسب تقديرك .

ـ انظر وقدر . . ومن أحق منك بتقدير كرامتك يا وارث الضياع الفيحاء والقصور الشماء ، والحدائق الغناء ، وفوق ذلك

الشرف الرفيع . . فقال فريد متهكماً : « لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى» فقاطعه الشيخ عبد البارى وقال :

— . . . « حتى يراق على جوانبه الدم » .

لا لا خل عنك الدم المراق ، فذاك زمن عفى عليه القدم ، ونفاه عهد الحرية فهون عليك يا صاحب السعادة وادفع على قدر طاقتك ، وحسبما تقتضيه كرامتك الغالية ! ! قال فريد وقد أبرز أوراقاً مالية قدرها خمسون جنيهاً .

— أيكفيك هذا المبلغ ؟ فقهقه الشيخ ساخراً وقال :

— غال والثمن رخيص يا صاحب السعادة .

— قدّر ما شئت وعليّ الدفع .

— وهل تشترى كرامتك يا ملك المال بأقل من ألف جنيه، وما قيمة الألف عندك ؟ فصاح فريد مستنكراً :

— ألف جنيه ؟ ! هل هذا معقول ؟ !

— أبكرامتك تستهين إلى هذا الحد المشين ؟

— وهل أنت مصرّ على هذا المبلغ ؟

— كل الإصرار ، وإلا فدونك وما تريد ، وحتى محفوظ بقدر مضاعف .

— هذه خمسمائة جنيه ، هى كل ما معى الآن .

ـ والنصف الآخر؟ هل عدم وجوده معك يعفيك من دفعه؟

ـ أعطيك به صكًّا على البنك، ثم أخرج صكًّا وقلماً وبدأ يحرر فعاجله عبد البارى وأمسك بالقلم قائلا :

ـ مهلا حتى نفرغ من بقية الحساب . . !

فتجهم وجه فريد ، وبدا عليه الذهول ، وقال بضجر :

ـ أى بقية ؟ قال الشيخ بإصرار :

ـ فرغنا من ثمن كرامتك . . فأين ثمن كرامتى أنا ؟

ووضع يده على صدره منفرجة الأصابع ، متوترة الأطراف ، تهتز لحيته وتبرق عيناه بريقاً مخيفاً . . فأجابه فريد بصوت متخاذل :

ـ وكم يرضيك من الثمن لقاء كرامتك أيضاً ؟ فرفع سبابته وقال :

ـ ألف جنيه أخرى مع كثير من التجاوز والتسامح ! !

فابتسم فريد بمرارة وقال :

ـ أتقول جادًّا ؟ أم تمزح؟

فتجهم وجه الشيخ عبد البارى وقال بسخرية :

ـ لسنا فى موقف مزاح « يا صياد الملاح » . . !

فصاح فريد بانفعال وقد كاد ينفد صبره :

– لقد وافقتك على دفع ألف من الجنيهات ثمناً لكرامتى بلا تردد أو لجاج ، فأغراك استسلامى بطلب المزيد ، ولكننى لن أدفع ولن أسمح لك بأكثر مما سمحت بدفعه يا تاجر . . . قال هذا وعلى معارف وجهه ظلال كثيفة من الغيظ والحنق ، فأجابه الشيخ عبد البارى بتهكم وتحد :

– تاجر ماذا يا سيدى ؟ قال فريد بامتعاض :

– يا تاجر الكرامات . . ! فصاح عبد البارى مغضباً :

– تاجر الكرامات أشرف نفساً ، وأطهر حسّاً من تاجر الفضائح ! !

وكان الشيخ يتكلم فى تحد وعزم وقد أخذت التعابير ترسم خطوطاً واضحة على قسمات وجهه الصارمة ثم اختتم قوله :

– ادفع ثمن كرامتى ؟ وإلا فلن تفلت من قبضتى . . !

ضاق صدر فريد ، واشتد حنقه ، وجف حلقه ، وأحس كأن يداً حديدية تعتصر عنقه ، وتكتم أنفاسه ، فكاد يختنق بهذا الموقف العصيب ، ولم تعد له قدرة على مغالبة نفسه فقفز من مجلسه محاولا الفرار من هذا الجو الخانق ، ولكنه وجد الباب مغلقاً بإحكام ، فتقدم فى غضب وانفعال منعقد الجبهة ، متقلص الأسارير ، مرتعش الأصابع ، فأخرج الصك وحرره

كما قدر الشيخ عبد البارى ، ورمى به فى وجهه ، ثم شق طريقه وقد انفرج مصراع الباب أمامه ، غير أنه وجد الباب الخارجى مغلقاً ، فلبث ينتظر المفتاح وهو يردد غمغمة تدل على شدة غيظه ، وثورة نفسه ، وصاح :

— من فضلك خلصنى من هذا السجن البغيض !

قال الشيخ عبد البارى بهدوء :

— حقاً إنه بغيض ، ولكن الاعتداء على الكرامات ، وانتهاك الحرمات لو علمت أشد مقتاً من ظلمة السجون . . ! !

وفتح الباب فانطلق فريد ، والشيخ عبد البارى يشيعه بعبارات التحية والشكر على هذه الزيارة المشرفة ! ! كأنما كان يشيع ضيفاً عزيزاً ، وعاد فريد إلى قصره سيراً على قدميه ، وكانت كاميليا قد أخذت منه مفتاح سيارته فركبتها وعادت بها ، حتى لا تثير حوله الظنون بوجودها فى الطريق العام .

فما بلغ فريد حجرته حتى انكفأ على فراشه ، وهو يستشعر الضعة والخذلان ، كما يعود الجندى المدل ببأسه من المعركة مدحوراً ، مثخناً بالجراح . وأعد له غذاؤه فتناوله واجماً منقبضاً يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، فأقبلت مربيته تستفسره عما ألم به ، فكظم غيظه وقال :

أحس وعكة طارئة ، ثم قام متخلياً عن الطعام ولاذ بحجرته ، وطلب سكرتيرته كاميليا وخلا بها وراح يحاورها .

ــ هل لك أن تحددى المسئولية عما منيت به من إخفاق؟!

فقالت بانزعاج :

ــ أى إخفاق يا سيدى لا قدر الله ؟

ــ الإخفاق فى الوصول إلى قلب نجلاء ! !

وسرد أمامها ما دار بينه وبين نجلاء من محاورة ومحاولة وأخذ ورد ، غير أنه كتم عنها بقية الخبر ضناً بكرامته التى اشتراها بالمال . فأجابته كاميليا بتعقل :

ــ الواقع يا سيدى أنك تعجلت الحوادث ، وسبقت الزمن ، أما من ناحيتى أنا فقد فعلت ما فى طاقتى ومهدت كل شىء ، لولا تعجلك ، واستبدادك برأيك ، فكان من أثر التسرع ما كان . . .

ــ ألم تستدعينى أنت بناء على طلبها ؟

ــ كلا يا سيدى إنها لم تصرح باستدعائك ، ولعلك تذكر قولك لى : اذهبى إليها وهيئيها لاستقبالى ، وسأفاجئها بدخولى وأقنعها بالخضوع للأمر الواقع ؛ فمهدت لك الطريق ، وحملتها على الظهور فى كامل زينتها خداعاً ومكراً بها ، وأحطتك

بالأمان ، لتصل باطمئنان ، وليس فى الدار أحد غيرها ، وتركت لتدبيرك إتمام البقية ، ثم عدت إلى قواعدى . وما دامت الخاتمة من وضعك الخاص فلا لوم علىّ . . !

— إذن أنا وحدى الملوم . وعلىّ تقع تبعة تهوّرى . . !

— إنك يا سيدى لم تستأن ، وقد كان الزمان كفيلا بربط قلبيكما . ولكنك آثرت أن تفاجئها فى مخدعها ، محاولا أن تمتلك قلبها عنوة . . وقلوب الغيد لا تؤخذ على غرة ، ولا تؤسر بالقوة والاغتصاب . . !

والحرائر المحصنات لا يغريهن المال ، ولا يغرهن الثناء الزائف الذى تكمن وراءه الأغراض المريبة . . . وهذه السيدة ...

فقاطعها فريد بضيق وضجر :

— كفى كفى . . اذهبى ودعينى أغرق همومى فى الشراب ..!

وما مضى اليوم حتى أغرق فى الكؤوس إغراقاً أفقده وعيه . . . لا يكاد يفيق إلا ليعود ، واجتمع سمّاره وروّاد ناديه ، وهو ينثر عليهم عطاءه ، ويغرقهم فى شرابه . . .

موقف الحساب

كان الشيخ عبد البارى قد عهد إلى خادمه أن يراقب المنزل فى أثناء غيابه، وذلك بعد أن رأى من زوجته هذا التحول الطارئ وداخلته من ناحيتها الظنون ، وكان الخادم يلهو مع الصبية أمام المنزل فشاهد كاميليا سكرتيرة فريد صفوت ، فى صباح اليوم الذى حدده فريد لهجومه الخاطف .

فلما رآه الخادم فى سيارته ورأى كاميليا تدخل المنزل، خف لساعته فأخبر سيده بما رآه . وكان الخادم يعرف سيارة فريد ، فانقبض صدر الشيخ عبد البارى وأحس كأن كابوساً ثقيلا يجثم على صدره ، وجاء مسرعاً فكمن قريباً من المنزل ، بحيث يرى الداخل والخارج دون أن يراه أحد .

فشاهد الفتاة تخرج من المنزل وتغيب وراءه، ثم يأتى بعدها فريد فيدخل بمفرده كأنه كان على ميعاد مع ساكنة المنزل .

فلبث الشيخ فى مكمنه ليستطيع أن يدهم العاشقين متلبسين، ثم انسل على أطراف قدميه ، مرهفاً سمعه لكل طارئ ، حتى سمع محاورة تدور فى مخدع زوجته ، فأمعن فى الإنصات ، واستطاع أن يلم بكل ما دار بين فريد ونجلاء من جدال ، وألمّ

بالمحاولات الفاشلة التى قام بها فريد ، فلما وثق من براءة زوجته ، وسمع آخر كلمة نطق بها فريد ، ارتد إلى باب الحديقة فأغلقه بالمزلاج ووقف فى الخارج ، ثم دق الباب بشدة ليترك لفريد فرصة تمكنه من الاختباء وبهذه الطريقة استطاع الشيخ امتلاك زمام الموقف ، وتمكن من أن يضيق الخناق على المعتدى على حرمة بيته ، دون أن يقع بينهما اشتباك قد يجر عليه الفضيحة التى تفاداها جهد طاقته .

وبعد انصراف فريد خلا الزوج إلى زوجته ، وأحس بما تتوقعه من النذر ، واستشف على ثغرها كلمات حبيسة تحاول الانفلات فلا تجد السبيل ، ولحظها وهى تغالب نفسها على الأناة ريثما تستجمع الحجة للدفاع عن براءتها ، وطهر ساحتها ، قبل أن تقف من زوجها موقف الاتهام .

وقدرت تلك الجفوة التى قامت بينها وبين زوجها فى الأيام السابقة لهذا الحادث ، وظنت أن جفاءها هذا قد يثبت إدانتها ، ويلصق التهمة بها ، هذا إلى أنها كانت وقت وجود فريد متحلية مزدانة بأفخر حللها ..! فكيف تستطيع درء كل هذه الشبهات عن نفسها ؟!

نظر إليها زوجها بهدوء وتلطف بعثا فى نفسها شيئاً من

الراحة ثم سألها بهدوء :

– هل لك أن تصدقيني القول وتعترفي بالحقيقة ؟ !

– ليس في طبعي الكذب والبهتان ، والحقيقة سافرة لا يسترها الكتمان . . !

– نبئيني بكل شيء ، ولا تثريب عليك . . فنظرت إليه بحزم وثبات ومضت تقص عليه الوقائع من أول ساعة زارتها فيها كاميليا وهي في زي الخادمات ، حتى اللحظة التي اقتحم فيها باب مخدعها وأعادت ما دار بينهما من محاورة بلا تحريف ولا تزييف . . . فقال زوجها :

– وكيف انسقت في تيار هذه القوادة ولم تفطني لمواقع خداعها إلا بعد فوات الفرصة ؟ ولماذا لم تطلعيني على سرها ؟

– ما زلت أعتقد نزاهة قصدها ، وأنا في غفلة من تدبيرها وأنت تعلم أنني هنا وحيدة ، والخادم يقضي جل أوقاته خارج الدار فكنت فريسة سهلة بالنظر إلى عزلتي ، وانعدام تجاربي ، وقلة خبرتي بخبايا الصدور المغرضة .

– صدقت ، وأرجو أن تكوني الآن قد اكتسبت خبرة كافية ، وتلقيت درساً مفيداً لا ينسى ؟ !

وأقبل عليها طلق المحيا باسم الثغر ، باسطاً ذراعيه لعناقها ،

فألقت بنفسها بين أحضانه غير مصدقة أنه صفح عنها ، واقتنع بدفاعها على رغم القرائن القائمة على إدانتها . . !

فغلبها البكاء وفاض الدمع على خديها مدراراً ، ورنت إليه بعينين شارقتين بالدموع ، ففاض قلبه بالصبابة والوجد والانعطاف وطفق ينهل من وجنتيها وثغرها وهو يهمهم بصوت هامس مرتعش كأنه ابتهال : لك الحمد يا ربى !! فقد رددت إلىّ جوهرتى الغالية بعد أن كادت تنتزع من تاج كرامتى ! ثم جلس يخاطبها فى تبسط :

— هل تحسبين أنى بنيت العفو عنك على ما سمعته منك فحسب ؟

— وهل عندك علم وصل إليك من غيرى ؟

— نعم يا عزيزتى عندى الخبر اليقين ! !

— ومن أين أتاك ؟

— فأشار إلى أذنه بيمينه وطوق خصرها بيساره وقال :

— من هنا علمت ما دار بينك وبين فريد من مجادلة ومحاورة ، وأعجبتنى طريقة دفاعك ولطف أجوبتك .

ثم استطرد قائلا :

— هبيه لم يمتثل ولم يخرج حسب أمرك ، أكنت تخرجين إلى الطريق ؟

– خير لى أن أعتصم بالطريق من أن أحبس نفسى مع شاب مستهتر فاجر ، وإلا فماذا تستطيع فتاة ضعيفة الحول والحيلة فى موقف كهذا ؟ هل أصرخ ليدخل الناس علىّ أفواجاً .

– افرضى أنه هددك بالقتل ، فماذا كنت تصنعين ؟ !

– أتلقى الموت بصدر رحيب . .! وأموت ميتة الشهداء . .!

– الحمد لله الذى أرسلنى إليك فى الوقت المناسب ، وكفى ما لقيه المعتدى من جزاء رادع . . . ثم قال مستدركاً :

– دعينى أوجه إليك سؤالا أخيراً فأجيبى عليه بصراحة لأكون راضياً عنك كل الرضا .

– سل ما شئت . .

– لماذا كنت ألاحظ عليك فى الأيام القليلة الماضية شروداً وذهولا وانصرافاً عنى ، وتنصلا من واجبات الزوجية على خلاف ما تعودته منك بلا مبرر ظاهر ؟

– لا أكتم عنك أننى كنت فى غاشية أعمت بصيرتى ، بتأثير ما كانت تلقيه كاميليا فى قلبى من بذور خبيثة ، كادت تجد مكاناً خصيباً للنماء لولا أن تداركتها بعصمتى وقوة إيمانى ، فاقتلعتها من جذورها ضناً بشرفى وشرفك ، واعترافاً بما لك علىّ من فضل لن أجحده ما حييت ، وإنى لعلى يقين من خطئى

بقدر يعادل يقيني في جميل صفحك . . . ! ! فقال الزوج بارتياح :

ــ الاعتراف بالخطأ فضيلة ، وقد أضفت فضيلة جديدة إلى فضائلك الأصيلة ، فعفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه . والآن عاهديني على الوفاء . فتعاهدا وتعاقدا وصفت كأس المحبة بينهما .

وتأهب للخروج إلى محل عمله غير أنه لمح الصندوق الذى يحتوى قلادة فريد وكان قد تركه سهواً فتناوله وقال :

ــ ما هذا ؟

ــ ثمن الخيانة الذى حاولت كاميليا أن تحملني على قبوله ، وفيه قلادة ثمينة . ولعلك سمعت ما دار بيني وبينه بشأنها ، وقد تركها حينما أذهلته المفاجأة .

ــ أذكر أنني سمعته وهو يقص عليك قصة هذه القلادة ، فعليك أن تحتفظي بها حتى يتقدم لطلبها ، فليس من حقنا أن نستحل لأنفسنا ثمن الخيانة ، بعد أن استخلصنا منه ثمن الكرامة ! !

لقاء جديد

بدأت ثروة فريد صفوت تنحدر إلى الانحلال والتفكك ، فباع بعض ممتلكاته تحت وطأة ما تراكم عليه من الديون ، لإمعانه فى اللهو والشراب وموائد الميسر ، بعد أن أخفق فى محاولة الوصول إلى قلب فاتنته نجلاء ، وقد كان يحسب أنه بمشاهدتها سيسلوها وينصرف عن حبها ، غير أنه وجدها فوق ما كان يتصور حسناً ورواء، وقد خذلته وقطعت عليه طريق الأمل ، وعلى رغم هذا فهو ما زال يحن إليها ، ولا يكاد ينساها طرفة عين ، حتى لقد صرفه حبها عن سائر النساء .

وبعد مرور بضعة أعوام أضاع من أملاكه جزءاً غير يسير ، وما برح ممعناً فى سرفه .

وكان الشيخ عبد البارى فى هذه الفترة ، قد أنجب طفلين ، واتسعت موارده بكده واستقامته ، وبينما كانا جالساً بين زوجته وطفليه جلسة عائلية ، وبيده إحدى الصحف الصباحية ، إذ طالع فى صفحة الإعلانات إعلانا عن بيع بعض ممتلكات « فريد صفوت » فتوقف عن المطالعة وقال لزوجته : اقرئى هذا

الإعلان . فألقت نظرة إلى المكان الذى أشار إليه بالصحيفة وطالعته باهتمام ثم قالت :

ـ مسكين هذا الشاب !! وتغير لونها ، وهزت رأسها أسفاً ، ومضت تنظر إلى الأفق البعيد ، ولبثت ساهمة وزوجها يراقبها من طرف خفى حتى قالت بأسى :

ـ ألم يأن لك أن ترد أمانته التى طال عليها الأمد وهى فى عهدتنا ؟ ! فلعله محتاج إليها وقد حسب أنها فقدت منه فى مكان آخر فلم يتقدم لطلبها .

ـ لقد آن أن نسلمها إليه حقًّا ، وكنت مشغولا عن هذه القلادة ، وغاب ذكرها عن فكرى لولا أن ذكرتنى بها ، ولابد من ردها إليه فى أقرب فرصة .

فقالت نجلاء :

ـ اتصل به اليوم قبل أن يعاودك النسيان .

ـ سأخاطبه بالمسرة أولا وأحدد معه موعداً للقائه ، فلا أود أن أفاجئه بزيارتى ، إذ ربما كان ناقماً علىّ إلى الآن. فقالت :

ـ لا أظنه ناقماً عليك إذا رددت إليه أمانته ، وكل إنسان شريف مطالب بالذود عن كرامته ، وقد دافعت عن شرفك وكرامتك دفاعاً كريماً ، ولم تجرح شعوره أو تعتد على كرامته ،

ولن يكون بينك وبينه غير الاحترام المتبادل ، وخير لك أن تحرص على صداقته والتودد إليه ! !

ــ سأزوره بلا تردد ، وسأعطيه قلادته فاطمئنى ، ولا تكررى ذكره على لسانك بعد اليوم !

فضحكت بتهكم وقالت متحدية :

ــ وماذا يجرى لو كررت اسمه على لسانى فى مناسبته ؟ هل هو . . .

فقاطعها بغلظة وهو يصيح :

ــ كفى يا سيدتى . . .! فإنى أحس إحساساً عميقاً بأنك تضمرين له . . وصمت قليلا ثم أردف . . ماذا أقول ...؟

قالت بامتعاض :

ــ أضمر له الحب والإعجاب . . . ! أليس كذلك ؟ !

فقال بتخاذل :

ــ لا سمح الله . . . أريد أن أقول تضمرين له العطف والإشفاق بلا مبرر .

ــ تلك طبيعة الحرائر ، يضمرن العطف والرحمة لكل من تعانده صروف القدر ، ولو كان عدواً .

وأستطيع أن أقول بلا مواربة إن فريداً لم يضمر لنا العداوة

رغم تعديه حدود حرمتنا ، كل ما هنالك أنه شاب حدث لم ينتفع بالتجارب ، ولم يشغله عن عبثه شاغل ، وأبطرته كثرة المال فاندفع وراء ميوله دون أن يجد وازعاً من دين ، ولا هادياً من ولى له عليه سلطان ، وقد حاول أن يقتحم حصننا فألفاه منيعاً والحمد لله فارتد عنا معتذراً ، ولم يحاول أن يعيد الكرة بعد أن أرغم على دفع الثمن غالياً . وها قد تغير الحال فصرت أنا أماً لطفلين وكنت بالأمس عروساً فى عنفوان جلوتها ، وشتان بين الأمس واليوم ، أبعد هذا تشك فى نبل قصدى ؟ !

وفى مساء ذلك اليوم كان الشيخ عبد البارى فى انتظار فريد فى حجرة استقبال تتألق بالثريات المتلألئة وتزخر بالفرش الغالية والأرائك المنضودة الرائعة ، وهى إحدى حجرات القصر الذى يسكنه فريد.

لبث الشيخ فى انتظاره حتى يئس من حضوره وكاد ينصرف دون أن يقابله .

وبينما هو يهم بالانصراف حضر فريد وجلس بالقرب من زائره بعد أن صافحه بفتور ، وكانت تبدو على وجهه دلائل الضيق والضجر من ذلك الذى قهره منذ خمسة أعوام خلت ، غير أنه تناسى وتكلف الابتسام ، محولا وجهه عن ضيفه فراراً من الذكريات التى ما انفكت تطارده . . . وبعد فترة صمت قال فريد :

ـ لعلك جئت تتقاضانى ثمناً جديداً ؟

ـ بالعكس جئت لأرد الأمانة . ثم مد يمينه بالصندوق الذى يضم القلادة قائلا :

ـ تفضل . هل نسيت هذه القلادة الثمينة ؟ ما أظنها إلا من المخلفات الجديرة بالملاحظة والعناية . .

فبوغت فريد واحمر وجهه وقال :

ـ أجل يا سيدى هى من الآثار العزيزة ولولا أمانتك لنسيتها نسياناً تامًّا ، فأشكر لك هذه المكرمة .

ـ ماذا تقصد بالأثر العزيز ؟

ـ أقصد أنها كانت للمرحومة والدتى التى خلفتنى طفلا صغيراً ، ولست أدرى كيف طاش صوابى فقدمتها لسيدة لا تربطنى بها رابطة من قرابة أو رحم ؟ ! ومعذرة يا سيدى ، فللشباب نزوات لا نقيم لها اعتباراً إلا بعد أن نرتطم بالنتائج الوخيمة ..!

وصمت لحظة ثم أخذ نفساً من سيجارته المشتعلة وهو يتابع بنظره دخانها المتوثب واستطرد يقول :

ـ إننى أبحث عن شيخ جليل كان يتولى وظيفة القضاء فى المحاكم الشرعية ، وقد طال بحثى عنه بلا جدوى . . فبدت أمارات الاهتمام على وجه الشيخ عبد البارى وقال :

– ما اسم هذا القاضى الذى تبحث عنه ؟

– اسمه الشيخ عبد اللطيف حسنى على ما أذكر . . .

فقال الشيخ عبد البارى مصححاً :

– عبد الرءوف حسنى . تريد ؟

– نعم نعم ! ! أقصد عبد الرءوف . . . وهو الأصح . . . فهل تعرفه ؟

– إذا كنت تريد الشيخ عبد الرءوف حسنى فهو من أقرب الناس إلىّ .

– نعم، أرجوك إذا كنت تعرف محل إقامته أن تدلنى عليه ! !

– إنه كان إلى عهد قريب يسكن القاهرة ثم بنى له بيتاً مستقلاً فى ضاحية مصر الجديدة بعد أن بلغ السن القانونية وأحيل إلى التقاعد ، أى منذ خمسة أعوام على وجه التقريب .

– عجباً . . . ويأتيك بالأخبار من لم تزود . . !

فمن العجيب أننى كنت فى طلبه منذ عامين تقريباً ولا أجد السبيل إليه حتى آن الأوان وبعثك الله إلينا ، وقد كدت أفقد الأمل فى الوصول إليه أو معرفة مكانه .

– وما هو السبب الذى حدا بك للبحث عنه بهذا الاهتمام ؟

– موضوع يشغلنى ، وإذا تفضلت فتكرم بذكر عنوانه

أو رقم المسرة إذا أمكن .

ــ أستطيع أن أرافقك إليه إذا شئت .

ــ هكذا . . ؟ أكون شاكراً لك ، ولكن ألا ترى أن من اللياقة أن نحدد معه موعداً لزيارته بدلا من أن نفاجئه بلاسابق تعارف بيني وبينه ؟

ــ سأتصل به فى أقرب فرصة وأعود لمرافقتك إليه بكل ارتياح ، ويشرفنى أن أكون فى صحبتك .

ــ عفواً يا سيدى !! وآمل أن تهتم بهذا الأمر خدمة للمروءة والإنسانية وأنت خير من يمثلهما ، ويرعى حق الله فيهما . .

ــ بعون الله سأقوم بهذه المهمة خير قيام .

* * *

عاد الشيخ عبد البارى إلى منزله مطمئن القلب ، مستريح الضمير ، بعد أن أدى الأمانة إلى أهلها واكتسب صداقة فريد صفوت بعد أن كان يتوجس منه الشر ، ويخشى انتقامه .

وبادرت نجلاء تسأل زوجها عن نتيجة اللقاء ، فحدثها بحديث فريد ورغبته الشديدة فى الاتصال بالشيخ عبد الرءوف حسنى القاضى السابق .

فقالت بدهشة :

– ترى ماذا يريد فريد من رجل كهذا ؟

– لا علم لى بشيء ، لأن فريداً أخفى علىّ السبب ، وبما أنى سأكون معه فى هذه الزيارة فقد أقف على السر ، على أن الأمر لا يتعدى الفتوى الدينية ، أو الاستنارة بالرأى فى قضية شرعية .

– لا أظن ذلك !

– ولماذا . . ؟

– لأن علماء الدين كثيرون ، والقضاة فى كل مكان ، وكان فى إمكانه أن يعرض مشاكله على أى عالم أو قاض دون احتياج إلى الشيخ عبد الرءوف بالذات ، وقد بحث عنه كما تقول قرابة عامين ، فلا شك أن فى الأمر سرًّا خاصًّا ، وما يدريك لعله ينوى مصاهرته . . ؟ !

فقال الشيخ عبد البارى بتّهكم وهو يضغط على مخارج الألفاظ :

– فريد صفوت يبحث عن أحد رجال الدين والقضاء ليتزوج ابنته ؟ هذا تفكير بعيد عن الاحتمال ؟ !

– ولم يكون بعيداً عن الاحتمال؟ إن بنات الشيخ عبدالرءوف زوجات مثاليات فى كل شيء ، تربين تربية كريمة ، وكلهن تزوجن

ما عدا صغراهن التى لا يزيد عمرها عن أربعة عشر أو خمسة عشر عاماً ، وهى أكثرهن جمالاً ، وسترى أنه بسبيل خطبتها . . .

ــ أما أنا فأرى غير ذلك ، وأنتن يا معشر النساء لا تطوف أفكاركن إلا حول الخطبة والزواج والحب والغرام .

ــ دعنا من هذه التكهنات العقيمة ، فلا شأن لنا بفريد ولا بمشاكله !

القاضى الشرعى

فى مساء اليوم التالى أغلق الشيخ عبد البارى محل تجارته مبكراً ، وتوجه إلى منزل الشيخ عبد الرءوف حسنى بضاحية مصر الجديدة ، تلبية لرغبة فريد حيث دار بينهما حديث بدأه عبد البارى قائلا :

ــ لقد طال غيابى عن زيارتكم لأمور خارجة عن إرادتى ، وأملى أن تقدروا عذرى « والعذر عند كرام الناس مقبول » .

ــ لا تثريب عليك يا صاحبى ، وسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله .

فابتسم عبد البارى وقال :

ـ جئتك بنبأ جديد . . !

ـ خير إن شاء الله .

ـ هل تتذكر فريد صفوت ؟

ـ من فريد صفوت ؟

ـ صاحب الموقعة التى ذكرتها لك فى حينها . .

ـ لا أذكر شيئاً . .

ـ عجباً ، هل غاب عن ذاكرتك ذكر الشاب الذى اقتحم داری منذ بضع سنوات ، وأرغمته على دفع ثمن الكرامة مضاعفاً ؟!

ـ أجل تذكرت ، ما شأنه ؟

ـ فى يوم الحادث بالذات ترك عقداً أو قلادة ثمينة ، وكان يريد تقديمها ثمناً للخيانة ، فلما أذهلته المباغتة ترك القلادة وانصرف . وطال العهد عليها وهى عندنا حتى كدت أنساها ، لولا أن ذكرتنى بها زوجتى وأصرت على أن أردها إليه ، فمضيت إليه بالأمس بعد أن حددت معه موعداً بالمسرة ، وكنت فى غاية الخجل من لقائه ، ولكنى أشهد أن هذا الشاب كريم العنصر !

ـ وكيف رأيته كذلك ؟

ـ لقد غفر لى ما أسلفته إليه من الإساءة ، وتجاهل ما كان بيننا واعتذر بلطف ولباقة عما بدر منه ، وشكرنى على رد الأمانة

بعبارات تدل على لطفه ونبله .

ـ لا عجب فقد يكون معدنه طيبًا ، ولكن الشباب شعبة من الجنون ، والفراغ مفسدة ، ولو أحسن توجيهه منذ النشأة لأفاد واستفاد ، ولعل الله سيكتب له الهداية ! ولله فى خلقه شئون .

ـ المهم فى الأمر أنه يبحث عنك منذ عامين كما يقول .

ـ يبحث عنى أنا ؟ ولماذا ؟

ـ لا أدرى ، وقد سألته عن السبب فلم يشأ أن يخبرنى ، ولكنه يعلق أهمية كبرى على مقابلتك ، وكأنه يبحث عن كنز مفقود .

ـ لقد زدتنى عجباً ، فأنا لا أعرف هذا الشاب ، ولا أذكر أن بينى وبين أحد من أسرته أية معاملة أو صلة .

ـ الغرض الوحيد ، أنه حملنى أمانة ، وهى تحديد الوقت الذى تراه مناسباً لمقابلتك ، وسأعود إليه وأخبره كما وعدته بالأمس فماذا ترى ؟

ـ ليتفضل بزيارتى فى مساء غد بعد صلاة العشاء .

ـ وهو كذلك ، وسأرافقه فى هذه الزيارة إن شاء الله .

* * *

وقفت السيارة بفريد والشيخ عبد البارى أمام « فيلا » أنيقة ، تتوسط حديقة صغيرة ، جميلة النسق ، غاصة بمختلف

الأزهار فانشرح صدر فريد لهذا المكان ، وملكه الإعجاب بذلك المنزل الحلوى البديع ، وتقدمه الشيخ عبد البارى فاستأذن على صاحب الدار .

وبعد فترة وجيزة رأى فريداً نفسه أمام شيخ مهيب الطلعة ، يشع من عينيه بريق الفطنة والذكاء ، ويبدو عليه الجد وقوة الشخصية فصافحه فريد باحترام ، وتأبط الشيخ ذراع فريد ودلف به إلى غرفة استقبال رحبة ، مؤثثة بأثاث نظيف حسن الترتيب ، وفى زاوية من زواياها مكتبة كبيرة عامرة بالمجلدات والكتب الحديثة .

جلس القاضى وأجلس فريداً إلى جواره وهو يردد عبارات الترحيب .

ولبث فريد هنيهة يتأمل القاضى مدفوعاً بجاذبية إليه ، والشيخ عبد البارى على مقربة منهما يترقب البدء فى الموضوع ، فلعل له به علاقة ، وبدأ فريد يمهد للأمر حين قال :

— أرجو أن يتفضل سيدى الأستاذ فيفسح لى صدره ، فما أنا إلا أحد أبنائكم وقد جئت منساقاً إليكم بإحساس الابن البار نحو أبيه العطوف . فقال القاضى ببشاشة وتلطف :

ــ تفضل يا بنى فلن تجد منى غير ما تحب . فأى شىء تريد ؟

ــ إن الأمر الذى أنا بسبيله دقيق يستدعى الاهتمام والسرية ، حتى نصل به إلى غايته المرجوة .

فأعطى القاضى إشارة للشيخ عبد البارى ليتركهما منفردين ، فانصرف عنهما وهو يحس ببعض الأسف ، وأخرج فريد من حقيبة كان يحملها بيده بعض الأوراق ومعها كراسة أنيقة ، قدمها إلى القاضى قائلا :

ــ هذه مذكرات المرحوم والدى « صفوت بلك رياض ابن رياض باشا سليم » وهى مكتوبة بخطه ، وقد عثرت عليها مصادفة وأنا أبحث عن بعض المستندات ، فطالعتها مرات وأنا مسلوب الشعور بروعة الحوادث والملابسات التى أحاطت بحياة والدى ، ووجدت فى ملحق المذكرات حادثة بالذات هى التى حدت بى إلى البحث عنكم ، لأنها تتصل بكم صلة وثيقة ، وأرجو منكم الكشف عما يكتنفها من رموز .

فبدت الدهشة على وجه القاضى ومضى يراجع الحوادث التاريخية التى مرت به ويستعرضها فى مخيلته ، ثم تناول المذكرات وطفق يقلب صفحاتها فرأى أنها تحتاج إلى وقت للمراجعة والاستقراء ،

طواها ونظر إلى فريد ليتّم بقية حديثه حين قال :

ـ أطلت البحث والسؤال عنكم دون جدوى حتى استيأست ن لقائكم . غير أن الله قد جعل لكل شيء ميقاتاً وسبباً ، أرسل إلىّ الشيخ عبد البارى منذ يومين بعد أن مر علىّ عامان نا أسأل كل من يصادفنى .

وإن للمرحوم والدى ديناً فى عنقى ، ولن أستريح حتى دى هذا الدين لتسعد روحه فى عليائها ، وليطمئن قلبى ، يستريح ضميرى .

فقال القاضى بعزم :

ـ توكل على الله ، واترك لى هذه المذكرات أمانة لأطالعها لدوء وأحيط علماً بكل ما يتصل بى ، ثم أرسل إليك لأوافيك لنتيجة فكن مطمئناً .

ـ بارك الله عليكم ، وسأحضر معى مربيتى لأنها تعرف ن أسرار الأسرة أكثر مما أعرف وقد نحتاج إليها . . .

ورجع الشيخ عبد البارى بعد أن ناداه القاضى ، فشرب لاثة القهوة واستأذن فريد فأذن له صاحب الدار ، فانصرف عه الشيخ عبد البارى حيث عاد كل منهما إلى مسكنه .

خطبة مرتجلة

عاد فريد إلى قصره مغتبطاً ، واسع الأمل ؛ فسأا
مربيته عما تم بينه وبين القاضى فقال مداعباً :

— لقد حكم القاضى بتأجيل القضية للنظر ! !

— ولماذا ؟ والأمر لا يحتاج إلى تأجيل، وكلمة واحدة تص
بنا إلى الغاية .

— ومتى حكم القضاة دون تأجيل ومراجعة ؟

— وهل نحن أمام محكمة ؟

— الغرض ! نسأل الله أن يصل بنا إلى الحكم المطلوب
ولعلنا ننتهى فى الجلسة القادمة .

— لقد فهمت ، الحكم بعد المداولة . . !

فقال فريد بمرح وتفاؤل :

— ما رأيك فى أننى أحسست فى أعماقى بارتياح شديد
وإجلال عميق لهذا الشيخ الوقور ، وكأنى كنت بحضرته
والدى أو جدى أو شخص تربطنى به رابطة الدم ، ولا أ-
عنك أننى سحرت بهذا الرجل حتى تمنيت أن أصاهره ، ف
لديه عروس تصلح لى يا ترى ؟

– لا ريب أن الرجل قد سحرك حقاً ففكرت فى الزواج وأنت من أعداء الزواج والمتزوجين ؛ أسأل الله لك الهداية يا بنى فهذا فأل سعيد . ولكن أخشى أن يصدمك القاضى بالتأجيل إذا تقدمت إليه خاطباً ؟

– بما أنك ستكونين معى فى الجلسة القادمة ، أرى أن تنصرفى إلى مقر السيدات لتشهدى بنفسك ما إذا كان لديه العروس المنشودة .

– وهبنى رأيت أنا العروس ، وكانت فى نظرى كاملة الأوصاف ، أو « مطابقة للمواصفات » أتثق بحكمى وتتخذه قضية مسلمة ؟ !

– ولماذا أتخذه قضية مسلمة ؟ أليس لى رأى ؟

– لك الرأى الأول والأخير بلا نزاع ، فإذا أعجبتنى عدت إليك بوصفها وأنا أعرف أنك تضع الجمال فى المقدمة .

– والكمال ، واللطافة ، والثقافة والرشاقة . . . فإذا توافرت هذه الشروط ، فأسرّى إلىّ بما رأيت قبل أن نبدأ فى الموضوع .

– وإذا نقص شرط من هذه الشروط ؟

– نترك الأمر للظروف ، وعلى أى الحالين سأعد « الشبكة» لها أو لغيرها ، فقد استخرت الله وعزمت على « طلاق العزوبة» .

* * *

لبي فريد دعوة القاضى وانتقل إليه مع مربيته بعد ثلاثة أيام من زيارته السابقة ، فلما استقر به المقام ، قال القاضى :

ـ بشراك يا بنى فقد كلل الله سعيك بالنجاح ! !

فاشتد خفقان قلب فريد حتى كاد يسمع وجيبه ، واختلجت حواسه ، وقال وهو يخفى انفعاله :

ـ بشرك الله بالخير ، وجزاك عن المروءة والإنسانية خير الجزاء ، وتلفت حوله بحثاً عن مربيته فقال القاضى :

ـ لعلك تبحث عن السيدة التى كانت ترافقك ؟

ـ نعم أين ذهبت ؟

ـ دخلت إلى السيدات لتأخذ حريتها معهن .

ـ أشكر لكم هذا الترتيب .

وهنا داعبت فريد الأحلام العذبة ، وساوره شعور خفى لا يمكنه تحديده ؛ أهو شعور الفرح والغبطة ؟ أم هو شعور الوجل ؟ أم شعور مشترك بين هذا وذاك ؟ . . . على أنه كان يستحث الزمن ويستعجل الحوادث ، ويود أن يصل إلى النهاية طفرة فقال :

ـ أيتم الحكم فى قضيتى الليلة ؟ أم تكون قابلة للتأجيل ؟

فقال القاضى مبتسماً وقد سره أن فريداً يتكلم على سجيته :

ــ سيتم كل شيء قبل أن تقوم من مقامك إن شاء الله ، وإنما يتوقف الأمر على حضور الشيخ عبد البارى ، وقد بعثت إليه أطلبه ولم أطلعه على السبب ، فارتبك فريد وبدت عليه البغتة وقال :

ــ وما علاقة الشيخ عبد البارى بالموضوع وهو سر بيننا ، وقد تعاهدنا على كتمانه حتى يأذن الله فى إعلانه ؟

فقال القاضى مداعباً :

ــ لا ضير عليك من صاحبنا الشيخ عبد البارى ، فلن يتقاضاك ثمن الكرامة وأنا معك ! ! فاحمر وجه فريد خجلا وأحس بالحرج وقال :

ــ ومن أين جاءتك أخبار الكرامة التى تباع وتشترى ؟

ــ من تاجر الكرامات ! ! وضحك . فابتسم فريد بمرارة وأجاب :

ــ وهل يليق بشيخ محافظ حريص على الكرامة أن يذيع الأسرار وهو الأمين على سر الكرامة ، وحسن السمعة ؟ ! فربت الشيخ عبد الرءوف على كتف فريد واحتضنه بعطف وقال :

ــ ما هى إلا دعابة يا بنى ، أما سر الشيخ عبد البارى فلم يطلع عليه غيرى ولو لم يكن هناك سبب يعفيك من الاتهام ،

ويضعك فى مصاف الكرام لكتمت عنك هذا التعريض ، وستعلم الحقيقة وتدرك ما أرمى إليه . . !

فصمت فريد وهو يستشعر شيئاً من المهانة ولا يكاد يفقه المبررات التى ألمع إليها القاضى ، وفى تلك اللحظة أقبل الخادم يستدعى فريداً لينفرد بمربيته فى حجرة مجاورة فاستأذن القاضى وذهب إليها حيث أخبرته بكل ما وصلت إليه من أوصاف العروس فأطرتها إطراء ملك عليه جنانه ، واستفز كامن وجده ، وأنساه أمره الذى شغله عما عداه ، وقد اعتاد أن يعشق بسمعه قبل بصره ، فقال والجذل يستأثر بلبه :

ـ عظيم . . . عظيم جداً . . .

ثم استدرك قائلا وقد انطفأت ابتسامته :

ـ هل كشفت سر الخطبة أمام سيدات الأسرة ؟

ـ لم يعلم أحد بشىء غير والدتها زوج القاضى ! فقال بأسى ظاهر :

ـ كان يجب أن تتمهلى ، لأن الشيخ عبد البارى أفشى أسرارى . . !

ـ وأى سر كشفه الشيخ عبد البارى عنك وهو لم يعرفك من قبل ؟

ـ كشف حادثة فعلتها فى أيام طيشى ، وكنت أحسب أنه سيتورع عن ذكرها ، سامحه الله ! !

ـ لا تتردد فإن أم العروس ترحب كل الترحيب ، ووالدها يسره كل السرور أن تكون زوجاً لصغرى كريماته ، وإن كان هناك مانع مؤقت ، لأن الفتاة ما زالت دون السن القانونية ، وما عدا ذلك فهى مستوفية الشروط . . فضحك فريد وقال :

ـ لقد صدق فألك حين قلت ونحن فى بيتنا : « أخشى أن يصدمك القاضى بالتأجيل إذا تقدمت إليه خاطباً ! ! ! » وعلى كل حال . . لا مانع من تقديم « الشبكة » إذا صادفت هوى فى نفسى ؛ فهل أستطيع رؤيتها ؟

ـ أنت ووالدها ، فهو صاحب الكلمة ، وأرى أن ترجئ الخطبة إلى ما بعد الفراغ من المهمة التى نحن بصددها .

ـ وماذا يمنعنا من أن نفرغ من الأمرين معاً ؟ وخير البر عاجله .

ـ هل ترمى عصفورين بحجر ؟

ـ لن أرمى العصفورين بحجر عادى ، ولكن سأطوقهما بحجر نفيس .

ـ على بركة الله ! ولكن إلى أين وصلتم فى الموضوع الأول ؟

ـ ما زلنا ننتظر ، وما زلت أتخبط فى جهالتى ، والحكم بعد المداولة والأمر لله ، وافترقا ، فذهبت المربية إلى مكان السيدات ، وعاد فريد إلى مجلسه من القاضى حيث قال وفى صوته رنة استيحاء :

ـ أرانى مغموراً بعطفكم وكرمكم اللذين أحطتمونى بهما دون تعارف سابق ، فلا عجب إذا أنا صارحتكم بما أخفيه من المشاعر الفياضة ، ومعذرة إذا كنت متعجلا ، أو سابقاً للزمن !

ـ تفضل يا بنى ، وتكلم بما شئت ، واطرح الكلفة والحذر جانباً ، فأنت الآن فى منزلك و بين أهلك . فقال فريد بارتياح :

ـ يزيدنى فخراً وشرفاً أن أجد لديكم شريكة حياتى المقبلة فهل أطمع فى مصاهرتكم ؟ !

ـ إن ابنتى هى صغرى أخواتها ، وما زالت صغيرة السن ، فإذا شئت حجزناها باسمك ولنا الشرف .

ـ عفواً يا سيدى وشكراً ، فهل يمكننى مشاهدتها ؟

ـ هذا من حقك ولا مراء . . ! ولا أرى عندى أى مانع ، وستراها بين أسرتى بعد قليل ولك تمام الحرية والخيار ، ودخل الشيخ عبد البارى فقطع عليهما حديثهما ، فتركهما الشيخ عبد الرءوف وانصرف إلى داخل المنزل وغاب بعض الوقت

ثم عاد وقادهما إلى مائدة العشاء فتناولوه وكل منهم يفكر فى محيطه حتى فرغوا . وهنا أمسك بذراع فريد وتأبط ذراع الشيخ عبد البارى وتوسطهما وهم بهما نحو الحجرة التى يجتمع فيها السيدات فصاح الشيخ عبد البارى بغلظة :

ــ إلى أين يا أستاذ ؟ فقال القاضى بتحد :

ــ إلى حجرة السيدات حيث تجلس زوجتك ! ! فحملق الشيخ عبد البارى فى وجه الشيخ عبد الرءوف باستنكار وتنصل وصاح محتداً :

ــ هذه مبالغة فى المزاح ! فقال القاضى مبتسماً :

ــ سنمثل قصة « ثمن الكرامة » ونحدد المسئولية من جديد، وإذا لم تثبت إدانة المتهم ، فسنرغمك على دفع ثمن الكرامة مضاعفاً ، فهل أنت واثق من براءتك ؟ ! فقال الشيخ عبد البارى بانفعال :

ــ هل أرسلت إلينا واستدعيتنا لهذا السبب ؟

ــ نعم وهذا هو سر اجتماعنا هذا المساء ، فما قولك ؟

فبدا على وجه الشيخ عبد البارى لون من الذعر ، وسحب ذراعه من ذراع القاضى ، وارتد إلى الوراء وهو يحتج ويحاول الخروج من المنزل غضبان أسفاً .

فلحق به الشيخ عبد الرءوف وجذبه من يمينه وهو يقول :

– سر يا شيخ عبد البارى ولا تخالف أمرى فتندم ! !

فامتثل الشيخ عبد البارى وأخذ يسير بين إقدام وإحجام وصاحبه يدفعه دفعاً إلى الأمام ، حتى كان ثلاثتهم فى حجرة فسيحة الأرجاء تتألق بالأضواء وتزدان بالفرش والأرائك وفيها اجتمع سيدات المنزل وبينهن جلست نجلاء ومربية فريد وعروسه المنتظرة ، فلما فاجأهن القاضى وصاحباه اضطربن ولا سيما نجلاء التى لم يعرفها فريد ولم يدر بخاطره أنها بينهن إذ كانت ممعنة فى الحجاب ، غائبة المعالم خلف النقاب . . . وكان زوجها بادى القلق ، يحس بالضيق والحرج الشديد لاجتماع فريد بزوجته فى مجلس واحد ، وهذا فريد يقلب نظره بين السيدات ، ويطيل التأمل فى بنات القاضى ثم يقف بنظره عند خطيبته بإعجاب وغبطة وقد بدت دونهن سافرة مرسلة الشعر رائعة الجمال ، هيفاء لفاء ، يجللها الخفر والاستحياء كلما التقى نظرها بنظر خطيبها فريد .

وكان فريد يحس بالحيرة والقلق من وجود الشيخ عبد البارى حتى قال القاضى :

– ألا تسمح يا شيخ عبد البارى للسيدة زوجتك بكشف

اللثام ؟ فليس بيننا غريب فى المجلس !

ــ فقال الشيخ عبد البارى بإصرار :

ــ مع احترامى للسيد فريد ، أحتفظ لنفسى بحق حجبها عنه وعن غيره من الأجانب .

ــ ألا تعلم أن السيد فريد صفوت سيكون صهراً لنا ، وكأنه فرد من أفراد الأسرة ؟

ــ على فرض أنه تقدم لخطبة كريمتك الصغرى ، وعلى احتمال أنه سيدخل بها عاجلا أوآجلا ، فلا شأن لزوجتى بالسيد فريد، وليس من حقها أن تبدو أمامه سافرة الوجه، لأن زوجتى كما تعلم غريبة عنكم ، ولا تربطها بكم رابطة من الدم . . !

فاشتد خفقان قلب نجلاء وشعرت بوحدتها ووحشتها وتنهدت بأسى عميق ، وأمعنت فى التخفى والحجاب ! ! غير أن القاضى صاح بها :

ــ اطرحى نقابك يا نجلاء . . ! واعلمى أن زوجك رجل رجعى متزمت ، يغار بلا مبرر معقول . . !

فهب الشيخ عبد البارى مغضباً ثائراً يقول :

ــ اسمحوا لى بالخروج فوراً مع زوجتى ، قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه . . . !

فانتفض فريد من مجلسه محرجاً وهم بالانصراف من الحجرة معتذراً للشيخ عبد البارى .

— لا تؤاخذنى يا سيدى ، فلو كنت أعلم أن زوجتك المصونة فى هذا المكان لأحجمت عن دخوله ، وما كنت أحسب إلا أن فضيلة القاضى يداعبك حين دعانا إلى هنا وما زلت أجهل السبب الذى اجتمعنا من أجله نساء ورجالا ، ولا أدرى ما موقفى بالنسبة لك هذه الليلة ؟ !

فحنا عليه القاضى وأدركه وربت على كتفه وأجلسه إلى جواره وهو يبتسم ويستحثه على الأناة والحلم ثم التفت ناحية الشيخ عبد البارى وقال :

— أنت الآن لا تطيق وجود السيد فريد مع زوجتك فى حجرة واحدة ، بالنظر إلى الحادث الذى أوقفك منه موقف الغريم ، وما زلت تنظر إليه بعين الريبة والحذر ولك العذر يا صديقى ، ولا لوم عليك فى أن تحول بينها وبين العاشق الذى اقتحم عليها خدرها فى غيبتك ، محاولا اغتصابها عنوة . . ! ولعله قد أتى يخطب كريمتى ليكون هذا الزواج ذريعة للاتصال بزوجتك ، أو رؤيتها على الأقل بوصفه « عديلك » فما عليك إلا أن تقص علينا قصة زواجك مفصلة ليعلم السيد فريد أن

ابنتى التى ينوى البناء بها ليست أختاً لنجلاء كما يعتقد . . ؟

وبهذه الوسيلة تستطيع أن تحمى زوجتك من عدوانه المزعوم ، وتحجبها عنه بحق معلوم !

فأعجب الشيخ عبد البارى هذا الرأى ، وأدخل عليه الاطمئنان ، وبدأ يستعد لسرد القصة فكان تارة يقبض على لحيته ، ويغمض عينيه استجماعاً لأشتات الذكريات ، وطوراً يتحسس جبينه ويرد عمامته إلى الخلف وهو يمعن فى الصمت والتفكير . . . والجالسون ينظرون إليه بترقب حتى سئموا وملوا ونجلاء تدور بخاطرها الذكرى فتنهمل عبراتها فى صمت واستسلام لما يأتى به القدر .

فأخرجهم القاضى من حيرتهم قائلا :

— خل عنك يا شيخ عبد البارى . . ! إذ يبدو لى أن ذاكرتك أدركها الضعف ، وأجال نظره فى المجلس ، كما كان يفعل فى مجالس القضاء ، حين كان قاضياً يعتلى المنصة ، ويصدر الأحكام وصفق بيديه إيذاناً بالبدء فى الحديث ، وأطبق السكون على المجلس حين أخرج من جيبه رزمة أوراق وبسطها وانطلق يتلو بصوت جهير ، واضح المخارج ، وكأنه كان يعلن حكماً خطيراً على المنصة القضائية . .

سر الطفلة

من مذكرات صفوت رياض :

٧ من مارس . . .

لقد عادانى القدر ، فرمانى بأفدح الأحداث والنوازل ، ولم يترك لى بقية ممن أحببتهم ، ووثقت بوفائهم ، غير طفلى فريد ، وطفلتى الوليدة ، التى لم أسمها للآن . . وهما كل من بقى لى من أعزائى ولكنهما ما زالا طفلين أحدهما فى الثانية من عمره وهو فريد ، وأخته التى لم يمض على مولدها غير أيام معدودات ، فهل يدركان معنى لما أقاسيه ؟

ماتت زوجتى الأولى « نوال » وأنا فى طريقى إليها ، فلم تودعنى ، ولم أتزود بكلمة من ثغرها تبعث فى نفسى شيئاً من راحة الضمير ، أو أتخذ منها زاداً لهذا المصير الذى وصلت إليه ، وكنت أنا السبب المباشر لموتها ، حينما تمردت عليها وهجرتها بلا ذنب ولا جريرة . . !

وماتت زوجتى الثانية متأثرة بحمى النفاس ، وكانت قد آثرت أن تكتم عنى حقيقة مرضها حرصاً على راحتى ، وتفادياً

لإزعاج خاطرى ، فظلت تغالب الداء بقوة روحها ، ونبل إيثارها حتى خرت صريعة، وبموتها دفنت معها آمالى ومسراتى وصفو حياتى . . !

وهكذا غدوت شريداً طريداً ، أحمل طفلتى الوليدة ، وأنا زائغ البصر ، مسلوب الشعور ، أحتضنها إلى صدرى حتى أكاد أغيبها بين جوانحى ، وأنظر إلى قسمات وجهها تارة وكأنى أرى صورة أمها الراحلة الحبيبة . وانطلقت أسير على غير هدى حتى بلغت قصر والدى ، ولبثت أنظر إلى شرفاته المشرقة بأضواء النعيم . . وأتمثل والدى وتجهم أساريره فى مواجهتى ، فأشفقت منه على فلذة كبدى ، وأنا على يقين من أنه يكره سلمى وابنة سلمى وزوج سلمى تبعاً لها . . . ! لإمعانه فى التعصب والرجعية والاستبداد . .

وتذكرت وصية زوجتى سلمى وتوسلاتها إلىّ قبل وفاتها بألا أحاول استدرار عطف والدى على ابنتنا أو أتركها تعيش فى كنفه ، بعد أن شاهدت بنفسها مبلغ قسوته وتعسفه .

وماذا أصنع وأنا على أهبة الرحيل عن مواطن الذكريات الأليمة ؟ ! إلى أى طريق أسير يا رباه بهذه الطفلة المنكودة البريئة ؟ ! وأين خاتمة المطاف ؟ ! لست أدرى . . . !

٨ مارس

هذه الليلة هى إحدى ليالى شهر رمضان المكرم ، ومآذن المساجد تشع بالأضواء، والساعة أشرفت على الثالثة بعد منتصف الليل ، والسكون يخيم على الأحياء ، والجو يميل إلى البرودة . دثرت الطفلة بأثواب سميكة ، وانطلقت بها إلى مسجد خال من المصلين خافت الضوء ، فسميت باسم الله ووضعتها فى محرابه ، فألقى الله عليها السكينة وهدأت ببركة بيت الله المطهر ، ووقفت قريباً منها أصلى وأضرع إلى ربى أن يتولاها بلطفه ، ويشملها بظلال أمنه . . !

ولم يطاوعنى قلبى على تركها وحدها فتسمرت فى مكانى ، وكأن قدمىّ مقيدتان بقيد ثقيل ، وعيناى شاخصتان إليها ، حتى دخل المسجد شاب على رأسه عمامة فتواريت خلف أحد الأعمدة وأنا أرقبه ، رأيته يتقدم نحو المحراب وهو يتأمل ويطيل النظر إلى الطفلة ويتلفت حواليه ، ثم يستعيذ بالله من الشياطين ويحملها ، فأحس كأن يداً تنتزع قلبى من بين ضلوعى بقسوة، وأنا أحبس صرخة كادت تنفلت من حنجرتى ، وانطلق الشاب نحو باب المسجد ثم عاد ، وكرر التلفت حوله وأنا ممعن فى

التخفى ، إلى أن أقبل شيخ عليه مهابة وجلال ، فتقدم من الشاب وسأله عما يحمله ، ثم وقفا يتساران بكلام لم أتبينه ، وخرجا بها إلى الطريق وأنا أجد فى أثرهما دون أن يشعرا بوجودى .

دخلا منزلا كبيراً ، فأودعا فيه طفلتى ، وكرا عائدين إلى المسجد لإدراك الفريضة ، وأنا واقف فى زاوية أحد المنازل القريبة ، أكاد أخترق بنظراتى الزائغة المفزعة جدران الدار التى تضم حشاشة كبدى ، بين قوم لا أعرف عنهم شيئاً ، وكدت لشدة وجدى أن أدركها وأستعيدها بقوة ، وكانت الأرض تمور تحت قدمى ، وروحى ترفرف على الدار ، وبصرى شاخص إلى الباب الذى غيبها عنى . . !

لم أشعر بمرور الزمن حتى رأيت الشمس تغمر الكائنات ، فسرت متخاذلا متعثر الخطا ، كالسكير الذى أنفق ليلته فى احتساء الخمر حتى غاب وعيه ، وضاع صوابه ، فلا يدرى إلى أين تسوقه قدماه !

وانطلقت أضرب فى مجاهل الطريق ساعة ، ثم عدت من حيث أقبلت ، واستطعت بالسؤال أن أعرف صاحب البيت الذى آوى طفلتى ، وهو قاض فى المحاكم الشرعية ، يدعى عبد الرءوف حسنى . . . !

—

عند هذه النقطة ارتفع بكاء نجلاء ، واتجه إليها نظر الحاضرين الذين يتابعون الاسماع وهم مأخوذون بروعة الحوادث ، وقد ضربت الدهشة عليهم نطاقاً من الصمت والجمود ، وفريد ينظر ناحية نجلاء ولا يفقه معنى لبكائها ، والشيخ عبد البارى يهز رأسه ويحوقل ويردد تمتمات خافتة ، وقد اصفر وجهه ، وأدرك من الأمر خلاصته ، وإن لم يتبين ختامه ومؤداه . . ؟

وتابع القاضى تلاوة المذكرات وهو يشير إلى الحاضرين ليلزمهم بالصمت حتى يفرغ من تلاوة بقيتها ، وتابع التلاوة فقال :

خالجنى الاطمئنان إلى هذا الشيخ الجليل ، وحمدت الله الذى أرسله إليها ، وتفرغت لشئونى مكتفياً بهذا القدر ، للاستدلال على مقر طفلتى الغريبة ، وقد ضمنت تمتعها ولو ببعض العناية ، حتى يأذن الله باستعادتها ، إن كانت فى الأجل فسحة ، ومبالغة منى فى الاحتياط كنت قد أودعت بين طيات ثيابها جميع ما ادخرته زوجتى سلمى من مالها الخاص ، مع سلسلة ذهبية يتوسطها وعاء ذهبى محلى بالجواهر ، وبداخله مصحف صغير الحجم ، وهذه الحلية كانت لأمها ، كما ضمنت المظروف الذى يضم النقود رسالة هذا نصها :

... ...

أيها المسلم المحسن ، أحسن الله جزاءك !
هــذه الطفلة اليتيمة بريئة ، وليست من
أبنــاء الخطيئة ، والله يشهد . . !
فأكرم وفادتها ، وتلق الخير والبركة من
وجودها تحت ظلك حتى يأذن الله بردها
إلى أهلها . . .

(مسلم مغلوب على أمره)

نداء الدم

توقف الشيخ عبد الرءوف عن المطالعة ، وناول فريد صفوت مذكرات والده وقلب نظره فى وجوه السامعين والسامعات ، وقد علتهم الدهشة ، وملكهم التأثر الشديد ، فأوغلوا فى متاهات الأفكار ، حتى أيقظهم الشيخ عبد البارى بصيحة عالية .

ـ من أين أتيت بهذه المذكرات يا أستاذ ؟ فقال القاضى :

ـ ستعلم كل شىء فى حينه .

كل هذا وفريد صفوت لا يدرك شيئاً من حقيقة الأمر ، أما مربيته ونجلاء وزوجها فقد فهموا شيئاً وغابت عنهم أشياء .

ولم يجد الجميع بدًّا من الانتظار ، حتّى يرفع الستار .

ولم يلبث القاضى أن رفع صوته قائلا :

— استمعتم الآن إلى خلاصة ما ورد بمذكرات المرحوم « صفوت بك سليم، ابن المرحوم رياض باشا سليم »، وهذه المذكرات عثر عليها ولده السيد فريد بين أوراقه ، وحيث إن هذه المذكرات بما سجل فيها مطابق تمام المطابقة لجميع الملابسات والقرائن التى أحاطت بنشأة السيدة نجلاء هانم حرم الشيخ عبد البارى سلام . . .

وما كاد القاضى يعلن هذا السر حتّى دوى المكان بصرخة من فريد وقفز من مكانه كأنما لدغته أفعى وهو يصيح :

— أختى أختى أختى ، نجلاء أنا أخوك . . !

وهو يتقدم نحوها مادًّا ذراعيه فى لهفة . . ! فطرحت نقابها وأطلقت لمدامعها العنان . .

فأمسك الشيخ عبد الرءوف بيد فريد وجذبه واحتضنه ، وأسر فى أذنه كلمات وأجلسه إلى جواره ، فجلس مذعناً مستسلماً كالطفل الوديع ، غير أنه ستر وجهه بمنديله ، واندفع يبكى بحرارة، والجميع ينظرون إليه بتأثر وإشفاق، وينظرون إلى نجلاء بغبطة وارتياح ،وهى سابحة فى عالم لا يحيط به حد فاصل.

وعاد القاضى فأمر بالصمت وكان الجالسون قد انطلقت ألسنتهم وهم بين سائل ومجيب، وكرر الشيخ عبد الرءوف الفقرة الأخيرة التى وقف عندها فقال :

وبما أن هذه المذكرات بما ورد فيها مطابق تمام المطابقة لجميع الملابسات والقرائن التى أحاطت بنشأة السيدة نجلاء هانم حرم الشيخ عبد البارى سلام ، وهى فى المهد تحت إشرافنا وعلى أعيننا ، مع موافقة نص الرسالة التى وردت فى نهاية المذكرات للنص الذى وجدناه تحت ألفاف ثيابها ، واحتفظنا به من تاريخ عثورنا عليها ، إلى هذه اللحظة ، مع اتفاق التاريخ فى كلتا الرسالتين ووحدة الصيغتين وطريقة الكتابة ، نقرر عن يقين وتأكيد :

أن السيدة نجلاء هانم صفوت هى ابنة شرعية للمرحوم صفوت (بك) رياض بن المرحوم رياض (باشا) سليم ، وأخت شرعية لحماً ودماً لأخيها فريد .

* * *

حينما فرغ الشيخ عبد الرءوف القاضى من إلقاء المذكرات ، وأردفها بتقريره الذى كشف الستار عن حقيقة نسب نجلاء : نهض أخوها فريد من مكانه ، وكان ثملا بنشوة المفاجأة السعيد

التى لم يكن يحلم بها . . . !

فما كان يقدر أن مالكة قياده ، وسالبة رشاده ، هى أخته ومن دمه فأعلن فى حماسة وإيمان هذا القرار :

أشهد الله وأشهدكم جميعاً ، أننى وجدت دوائى ، وشفيت من دائى ونزلت لأختى المحبوبة عن نصيبها من الميراث عن طيب خاطر . . كما وهبت لها جميع ما أملك من حب وانعطاف ومودة وحسن رعاية وهى كما نشأت يتيمة كذلك نشأت أنا . . . بفارق واحد هو أننى أدركت اليتم وذقت مرارته منذ طفولتى ، أما هى فقد عاشت فى حضانة أبوين كريمين حتى شبت وترعرعت .

وإنى لأشعر الآن أن روح والدى سعيدة فى عالمها العلوى .

ومن هذه اللحظة سأسير وفق إرادة أختى الحبيبة ، وعلى ضوء هداها وبرها . . وبحسبى ما أنفقته من دمى وشبابى ومالى وعزة نفسى ثمناً لكرامتى . . !

وصمت قليلا ثم اندفع قائلا :

ـ من عجائب القدر ، أننى اندفعت فى حب هذه التى لم أكن أعرف حقيقتها ، اندفاعاً جنونيًّا طاغياً كاد يفقدنى عقلى ومالى ! ! وأكبر الظن أن هذا الحب الجنونى العجيب ما هو إلا من وحى نداء الدم ، ولا أكتمكم يا سادتى أننى

اقتحمت عليها خدرها بقوة لا إرادية ، حتى إذا كنت أمامها وجهاً لوجه شعرت فى أعماقى بقوة خفية جعلتنى خاشعاً كأنى أمام هيكل مقدس ، وملكتنى حالة من الذهول نسيت فيها نفسى ، فوقفت مسلوب الإرادة أمامها وأحسست برغبة فى البكاء ، حتى أيقظنى من غمرتى قدوم زوجها ، ولعلكم بعد هذا تعذروننى ، ولعل هذا النداء الخفى هو ميراثى من والدى ، ذلك الذى لقى الموت بين لجج البحر ، وفى قلبه شعلة متقدة من الحسرة والوجد على طفلته التى ألقاها فى كف القدر ، رهينة مجهولة الخبر . . . !

ثم أقبل على أخته نجلاء وكانت مدامعها لا تنفك واكفة هتانة ففتح لها ذراعيه حيث ألقت بنفسها بين أحضانه وقد استشعرت دفء الحنان يتسرب إلى قلبها من قلب أخيها ! ! على رغم أنف زوجها المتزمت الغيران . .

فمسح فريد رأسها بيده ، وقبل جبينها قبلة حانية أودعها طارف حبه وتليده ! ! ومدامع الفرح والسرور تترقرق من العيون فتلتقى فى مسيل مشترك بين الأخت وأخيها .

واستبد الموقف بشعور نجلاء فغابت فى إغماء مفاجئ ومالت على كتف أخيها فأسندها وأجلسها إلى جواره وأخرج

من جيب سترته زجاجة عطر قوى الرائحة ، فقربها من أنفها ومسح بالعطر جبينها وخديها فأفاقت بعد قليل ولبثت تتفرس فى وجه أخيها وهى شبه حالمة . . !

والجميع ينظرون إليهما بتأثر بالغ ودموع الفرح تجول فى مآقيهم ، وأقبلت العروس الصغيرة « هيفاء » فطوقت نجلاء بذراعيها وقبلت وجنتيها وهى تردد عبارات التهانى .

فتوسط فريد الفتاتين وألبس عروسه خاتماً من الماس الثمين ، وسواراً يتألق بالجواهر واليواقيت ، ثم عطف على نجلاء فطوق جيدها بالعقد الذى كان أمانة لديها ، فأصبح ملكاً حلالا لها ، وكان فريد قد أعده لتلك المناسبة دون أن يعرف أن نجلاء المحبوبة هى أخته الموعودة ! !

وكان الشيخان : عبد الرءوف القاضى وعبد البارى سلام يقفان عن كثب ينظران وكل منهما يحس بشعور خاص .

أما القاضى ، فقد كان مغتبطاً ، منشرح الصدر ، مرتاح الضمير بكشف حقيقة ربيبته الأثيرة لديه .

وأما الزوج عبد البارى فقد أوغل فى صمت حزين ، وأطرق برأسه ، وظل مطاطئ الرأس ساهماً واجماً حتى قال له القاضى مداعباً :

ـ أما زلت بعد هذا تغار على زوجتك من فريد ؟ !

فتنهد الشيخ عبد البارى بمرارة وقال بذلة ومسكنة :

ـ العوض على الله ! أين فريد صفوت حفيد رياض (باشا) سليم وأخته نجلاء هانم صفوت من عبد البارى سلام ابن تاجر الأغنام ؟

فعاجله فريد وقبل رأسه وعانقه وربت على كتفه وهو يقول :

ـ ما أنت يا صهرى الكريم إلا صاحب الفضل الأول والأخير ، حفظت الأمانة ، ورعيت حقوق الشرف والكرامة ، فصرت أهلا لكل شكر وتقدير . .

وقاضينا العادل هو والد الجميع ، ومؤدى الأمانة إلى أهلها ، كفل اليتيم ، ورعى حق الله فيه ، وجمع بين الشتيتين ، وألف بين أكثر من أسرتين ، وله فى أعناقنا جميعاً دين وأى دين ! !

كل هذا وعبد البارى خافض الرأس ، خاشع البصر .

فتقدمت نجلاء نحو زوجها وكانت قد فطنت لحالته فأحست بإحساسه وقالت وفى عينيها الحالمتين أثارة من دموع السعادة :

ـ عهد الله بيني وبينك أن أظل أمينة على عهدك ، متفانية في نكران ذاتي ولو غدوت ملكة متوجة ! أما والدي الشيخ عبد الرءوف فهو الأب الحاني العطوف ، وعقيلته الكريمة ، هي أمي الرحيمة ، وكفاني فخراً وشرفاً أنني تربيت حق التربية تحت ظلهما الظليل ، وإن عجزت عن مكافأتهما فعند الله حسن الجزاء .

والتفتت إلى أخيها فريد وقالت :

ـ وأما أنت يا أخي الوحيد فإنك معقد رجائي ، وخلاصة الباقين من آبائي ، وكلانا ثمرة الشجرة الوارفة الظلال ، فلنتعاون على ري هذه الشجرة برحيق الإيمان ، وأما سعادتي التي حظيت بها الليلة فلن تعدلها سعادة ، إذ عرفت أصلي وفصلي واكتشفت حقيقتي الضائعة ، فتحقق بذلك حلمي الجميل الذي طالما راود وجداني . .

فشكراً لله على تمام نعمائه ! !

دار المعارف بمصر

تقدم إلى عشاق القصص الجميل الرصين هذه الباقة الزاهرة من القصص الرفيعة التى تسمو بالنفوس وتمس شغاف القلوب :

		ص
الحب الضائع	للدكتور طه حسين	الثمن ١٨
دعاء الكروان	« «	« ١٢ للطبعة العادية
« «	« «	« ٢٥ للطبعة الممتازة
شجرة البؤس	« «	« ٢٥
آلام جحا	للأستاذ محمد فريد أبى حديد	« ٢٠
الوعاء المرمرى	« « « « «	« ٤٠
من حولنا	للأستاذ محمد سعيد العريان	« ٤٠
على باب زويلة	« « « « «	« [illegible]٠
قصة العرب فى إسبانيا	لستانلى لاين بول	
	ترجمة الأستاذ على الجارم	« [illegible]٥
غادة رشيد	للأستاذ على الجارم	« [illegible]٥
ثم تشرق الشمس	للأستاذ ثروت أباظة	« [illegible]٥
سر الهاربة	للأستاذ حسن رشاد	« [illegible]٥

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

مارس ١٩٦١

الثمن ٣٠ مليماً
٣٠ قرشاً سورياً